نوابغ الفكر العربي

٩

بديع الزمان الهمذاني

بقلم مارون عبود

قريحة وقادة وبصيرة نفاذة
وذخيرة من الأدب فياضة ألهمت
صاحبها بآثار روائع فنسب
إلى فلتات الزمان و بدائع الدهر.



دار المعارف ببيروت





الفصل الأول

عصر بديع الزمان

١ ـ الحالة السياسية

سئل أحد الساسة الأتراك : متى ابتدأت انكسارات الدولة العثمانية ، فأجاب : منذ أول انتصار . ثم فسَّر جوابه هذا بقوله : لأنها لم تفرض لغتها على المغلوبين .

أما الدولة العربية فهى بالعكس . أخفقت فى السياسة والحكم ، وبفضل القرآن الكريم انتصرت فى الدين واللغة انتصاراً لا مثيل له فى تواريخ الأمم والشعوب . ما شبَّت الدولة عن الطَّوْق[1] حتى دبّ الاضطراب إلى سياستها ، فمنذ بيعة أبى بكر أبدت الفتنة أذنيها ، وكان فى كل عهد مرتدّون ، وثوَّار ، وخوارج ، فلا يخمد السلطان النار فى جهة حتى تضطرم فى ناحية أخرى ، وحسبك أن الخلفاء الراشدين الصالحين الأربعة لم يمت أحد منهم حتف أنفه[2] غير أبى بكر الصديق . ثم لم تخضع الديار الإسلامية كلها لسلطان واحد إلا فى زمن الأمويين .

ولما حُمّ القضاء عليهم وهزم مروان الجعدى ، وآل الملك إلى بنى العباس نبتت على الأثر دولة أموية جديدة فى الأندلس تركت فى العالم القديم مآثر

(١) الطوق حلى للعنق . وشب عن الطوق : نما وكبر . قاله جذيمة فى ابن أخته عمرو ابن عدى وقصة ذلك أن عمراً لما ترعرع كان يخرج مع الخدم يجتنون للملك الكمأة فخرج يوماً وعليه حلى وثياب ففقد زماناً فلما وجد بعث به إلى أمه فأدخلته الحمام وألبسته وطرقته طرقاً كان له من ذهب فلما رآه جذيمة قال : شب عمرو عن الطوق .

(٢) مات حتف أنفه : مات من غير قتل ولا ضرب بل على فراشه . قال السموءل :

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طل يوماً حيث كان قتيل

عزّ نظيرها حضارةً وعلماً وعمراناً ، حتى قال أحد المؤرخين الغربيين فى عبد الرحمن الناصر : إنه ملك يصلح لسياسة أعظم دولة فى القرن العشرين .

والرشيد الذى قال للغمامة : أمطرى حيث شئت فإن خراجك يأتينى ، لم يسلم عهده الذهبى من تفسّخ . فنى زمن ولايته أنشأ العلويون دولة جديدة فى المغرب الأقصى عرفت بالدولة الإدريسية . وأراد هارون أن يتقى شرها ، على بعد المزار ، فعمل ما تعمله الدول اليوم ، فأنشأ إمارة بنى الأغلب فى إفريقيا . وعلى خطة الرشيد درج ابنه المأمون فأقطع قائده طاهر بن الحسين خراسان ، فكانت إمارة بنى طاهر التى دامت زهاء خمسين سنة وأكثر .

ثم أخذ الضعف يدبّ فى جسم الدولة رويداً رويداً ، فنشأت دول أكبر وأخطر ، فكانت الدولة الصفارية فى فارس ، ثم السامانية التى أزاحتها عن تخومها واستولت على فارس وما وراء النهر . وظهرت الدولة الزيارية فى جرجان ، ثم كانت الدولة البويهية التى لم تكتف بفارس بل بسطت سلطانها على العراق أيضاً ، وغلبت الخليفة على أمره حتى لم يبق له من الملك إلا الاسم ، بل شاركه بعضهم فى خطبة الجمعة .

هذا ما آلت إليه الدولة العباسية فى القرن الرابع الذى هو قرن المقامات والنثر المنمّق . كان الخليفة فى هذا العصر يُؤمر فيُطيع ، ولم يعد له من رقعة الدولة الواسعة غير بغداد ، بل بغداد نفسها كانت معرّضة دائماً لغارات هؤلاء الملوك الذين استقل كل واحد منهم بمقاطعة ، بل بالعاصمة نفسها ، وحجر على الخليفة وعيّن له مبلغاً من المال لنفقته .

ومن طالع التواريخ رأى أن أعمار الخلفاء لم تبق بيد الله كما نقول ، بل صارت بيد خدامهم ، فهم الذين يعزلون خليفة ويولون آخر ، ومن عصى فالعصا . ففى أثناء أربعة عشر عاماً — من سنة ٣٢٠ إلى ٣٣٤ — نصبوا وعزلوا سبعة خلفاء ، منهم من قتل ، ومنهم من سملت عيناه [١] . ومنهم من قتل صبراً .

وحاول القاهر بالله ، أحد خلفاء هذا القرن ، أن يعيد الخلافة جذعة ، فضيقوا عليه وحاصروه فى دار الخلافة وفتشوا الداخل عليه والخارج من عنده ، حتى

---

(١) سمل : فقأ .

أدخل أحمد بن زيرك الذى جعل على حراسته يده فى اللبن المحمول إلى الخليفة لئلا يكون فيه رقعة .

ولما عرف القاهر أنهم عازمون على خلعه تغدّاهم قبل أن يتعشّوا به . « ذبح على بن بليق ووضع رأسه فى طشت . ثم مشى ، والطشت أمامه ، حتى دخل على والده بليق أبى على! فوضع الطشت بين يديه ، وفيه رأس ابنه ، فلما رآه بكى . ثم أمر بذبح بليق ، فذبح ووضع رأسه فى الطشت . وحمل الطشت أمام القاهر ومشى حتى دخل على مؤنس ، فوضع الرأسين أمامه . فلما رآهما مؤنس تشهّد. ثم أمر بذبح مؤنس فذبحوه وجعلوا رأسه فى طشت. وأمر فطيف بالرؤوس الثلاثة فى جانبى بغداد ، ونُودى : هذا جزاء من يخون الإمام ويسعى فى فساد دولته[1] . »

ولكن كل هذا الإرهاب والتمثيل لم يحل دون خلعه ، فما دامت خلافته إلا سنة وسبعة أشهر ، وهو أول من سملت عيناه من الخلفاء . ويقال إنه كان يستعطى فى آخر أيامه .

وكثيراً ماصاروا فى هذا العصر يُصفّون مال الخليفة ويتركونه صفر اليدين . وأخيراً صار الحكم فريسة القوى المستأسد ، فكل من رأى فى نفسه قوة استبدّ بمقاطعة وأقام نفسه ملكاً عليها . كان لقب « الحضرة » مختصًّا ببغداد ، أما فى هذا القرن الذى نلمّ بفذلكة من تاريخه السياسى فأصبح فى كل بلد « حضرات » وكثرت الألقاب ، فمن يمين الدولة إلى عضدها ، ومن ملك الملوك إلى الشاه والشار ، إلى السلطان ، فصحّ فيها ما قيل فى الأندلس :

ألقاب مملكةٍ فى غير موضعها ... كالهرّ يحكى انتفاخاً صورة الأسد

ولا عجب أن سمّى المتنبى هذه الحقبة من الزمن دولة الخدم ، فأكثر هؤلاء كانوا خدّاماً واستحالوا قوّاداً ، ثم صاروا ملوكاً. فأصدق وصف للمملكة العربية فى هذا القرن ، هو ما قاله فيها أبو الطيب ابن ذلك القرن :

بكلّ أرضٍ وطئتها أمَمٌ ... تُرعى بعبدٍ كأنهــا غنمُ
يستخشن الخزَّ حين يلمسهُ ... وكان يُبرى بظفرهِ القـلمُ

---

(١) « التاريخ الإسلامى » للخياط ص ٢٦ جزء ٤

وإنمـا الناسُ بالملوك وما تفلح عربٌ ملوكها عَجَمُ
لا أدبٌ عندهم ولا حسبٌ ولا عهودٌ لهم ولا ذممُ

وقال أيضاً فى هؤلاء معللا نفسه بإحدى الممالك مثلهم :

لأتركنّ وجوهَ الخيل ساهمةً والحربُ أقومُ من ساقٍ على قدمِ
بكلّ منصلتٍ ما زال منتظرى حتى أدلتُ لهُ من دولةِ الخدمِ

ولماذا لا يعلل نفسه بالسلطان عبقرىّ كالمتنبى بعد ما رأى الثورات تلى الثورات والغزوات تلى الغزوات ، خليفة يقتل ليولّى غيره ولاية اسمية. أما الفعل والسلطان ففى يد مَنْ وصفهم المتنبى . كان الخلفاء قابعين فى قصورهم يتلمّسون رؤوسهم كل مساء وكل صباح ليروا ألا تزال فى مواضعها أم طاح بها أحد مواليهم وخدامهم . وكما كانت الدولة مقسمة فى العراق وفارس كقطع الشطرنج ، كذلك كان الأمر فى جميع الأقطار ، فهنا ملك الحمدانيين وهناك ملك الإخشيديين إلى آخر ما هنالك من ضروب التوزيع .

ففى هذا العصر امتدّت الأيدى إلى الخلفاء فهانت على الفرس والترك معاطسهم وسبالهم (١) . وبعد سكنى القصور التى وصفها ابن الخطيب البغدادى وصفاً كأنه الكذب ، صار الخليفة كواحد من الناس ، مصيره فى يد البويهيين والترك ، يتقاتلون فى عاصمته ولا يعنيه من الأمر إلا أن يلقِّب المتغلِّب باللقب الذى يقترحه حتى ضُربَت السكّةُ باسم بعض هؤلاء . وهكذا أمسى الخلفاء كما قال الأخطل فى بنى يربوع قوم جرير :

مخلّفون ويقضى النـاس أمرهمُ وهم بغيبٍ ، وفى عمياءَ ما شعروا

أما تاريخ مصير الخلافة فيلخص بما يلى : كلما قوى واحد فى هذا العصر عنا له الخليفة وخلع عليه . لقب محمد بن طغج بالإخشيد أى ملك الملوك . ولقِّب بعده ابن رائق بأمير الأمراء وأمر أن يخطب له على المنابر ، ثم فاض نهر الألقاب حتى صار آخيراً كل أمير مستقل يلقِّب نفسه . ومن يسأل عن خليفة

---

(١) المعاطس : جمع معطس وهو الأنف . والسبال : جمع سبلة وهى مقدم اللحية . وهذا التعبير كناية عن الذل والهوان .

أعزل ، لا مال ولا رجال !! أما هؤلاء الأمراء والملوك ، أو السلاطين المستقلون فكثيراً ما كانوا يذهبون ضحايا بعضهم بعضاً ، ومن عزّ بزّ[١] . كما أن الخلفاء أمسوا يُحبسون ويُقتلون صبراً كما فعل معزّ الدولة بالمستكفى .

وأخيراً صار أمر الخلافة فى أدنى الدركات فسلبوهم كل سلطانهم ، ولم يتركوا للخليفة وزيراً ، ما بقى له غير كاتب يدير أملاكه .

ومن يستغرب ، بعد هذا ، قول المتنبى لسيف الدولة :

ويا عجباً من دائل أنت سيفهُ ... أما يتوقّى شفرتَى ما تقلّدا
ومن جعل الضرغام للصيد بازه ... تصيّدهُ الضرغام فيما تصيّدا

وينبئنا التاريخ أن سيف الدولة حاول امتلاك بغداد ولكنه لم يفلح ، فعاد إلى مستقره وأنشأ « حضرة » تضاهى حضرة بغداد فى أيام عز الخلافة .

حقّاً إننا فى عصر صار كله « حضرات » كما قلنا ، وصح فى حكامه قول الشاعر فى الأندلس :

وتفرقوا شيعاً فكل قبيلة ... منها أميرُ المؤمنين ومنبرُ

أما أشهر هذه الدويلات ، وأزهرها فكانت دولة السامانيين والبويهيين . كان كل هؤلاء الملوك أو أشباه الملوك يقلدون الخلفاء القدامى ، لا خلفاء عصرهم الذين أمسوا نكرات ، ويطمعون بأن يزيّنوا « حضراتهم » بالشعراء والكتاب والعلماء ، وكل منهم ينافس الآخر . أما رووا أن عضد الدولة أرسل إلى المتنبى من يسأله : مَنْ أجزل عطاءً أسيف الدولة أم عضد الدولة ؟

وآخر من يعنينا أمره فى الربع الأخير من هذا القرن ، هو الناصر لدين الله أبو القاسم محمود بن سبكتكين الذى قضى على الدولة السامانية ثم غزا الهند غزوات كثيرة وامتلك أكثرها . وما سبكتكين هذا إلا واحد من غلمان أبى إسحق البتكين ، قائد جيش غزنة فى الدولة السامانية . ولى العسكر لما مات مولاه القائد واستقل بالملك . ولما مات قام بعده ابنه محمود . كان لقبه ، أولا ، يمين الدولة فأبدل به لقب السلطان حين استبدّ بالأمر ، فكان أول

(١) من عز بز : مثل يضرب للسلب والغلبة .

من لُقِّب بالسلطان فى الإسلام ، ثم عظم أمره واستولى على خراسان وقطع منها خطبة السامانيين ، وقرض دولتهم .

٢ ـ الحالة الاجتماعية

ما أشبه الليلة بالبارحة !

كان المال هو الغرض الأول فى هذا العصر ، فالخليفة يصفّى أموال وزرائه ويقتلهم أو يصلبهم . أما قال أحمد ابن الخطيب وزير المنتصر لما خلع عليه للوزارة : « مَثَلِى مَثَلُ الناقة التى تزيّن للنحر »[1] .

كان الخلفاء يتركون وزراءهم وعمّالهم وولاتهم هملاً كالغنم فى المرعى ، حتى إذا ما سمنوا ذبحوهم . وأخيراً جاءت نوبة الخلفاء أنفسهم فصار عمالهم يفعلون بهم كما كانوا يفعلون هم بغيرهم ؛ كما فعل بهاء الدولة البويهى بالطائع حين أخذ ما يملك ثم خلعه . أما وقف القاهر المسمول فى جامع المنصور ، وعليه مبطّنة بيضاء ، وقال للناس : تصدّقوا على فأنا منْ قد عرفتم .

أهمل الخلفاء شؤون الدولة الجلّى ، وصارت الكلمة فى القصور للخدم والنسوان ، وللجوارى والغلمان . أما قال إسمعيل بن أحمد فى غلام له : « يصلح للفراش وللهراش » . وقصة ثَمِل القهرمانة جارية المقتدر ، أما كانت تقعد للمظالم ، فتعرض عليها شكاوى الخاصة والعامة ، ويحضر مجلسها ـ محكمتها بلغة اليوم ـ الوزير والكاتب والقضاة وأهل العلم فى حين يكون الخليفة غارقاً فى مجلس اللهو والطرب .

قال بشار :

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الزقّ والعودِ

فقتل بهذا البيت ، أمّا فى هذا القرن فصار المجون والتهتك شيئاً لا يستحى به . وإذاما قلّ مال الخلفاء والأمراء والولاة فتشواعن الأغنياء من الرعية وأخذوا أموالهم لينفقوها فى قصورهم .

---

(١) يقال : نحر الناقة وذبح الشاة .

وكثر فى هذا العصر اقتناء السرارى والغلمان فقلما خلا قصر من المئات منهم ومنهن . وهذا صاحبنا المتنبى ينظم قصيدة فى رثاء يماك غلام سيف الدولة أو مملوكه ، ولا يتورّع أن يقول فيه :

وإن الذى أمست نزارٌ عبيدهُ   غنىّ عن استعباده لغريبِ

ولا أذكر لمن قرأت هذا القول : « رغّبنى فى الوزارة اقتناء الغلمان » .

وملخص القول أن هذا العصر كان عصر ترف فى القصور والدور ، وهذا الترف جرّ إلى الفتن والحروب والمصادرات وكبس البيوت حتى صارت الثروة خطراً على صاحبها . فما قولك بوزير عنده من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام ! أيدع هذا كبيرة أو صغيرة لا يرتكبها فى سبيل ابتزاز الأموال ؟!

إن هذا الترف الذى رافق الخلافة العباسية منذ هارون حتى صار الخلف يسعى جهده ليفوق السلف ، لهو الذى جرّ إلى سقوط الخلافة فى هذا العصر . ثم عارض الخلفاءَ فى ميدانهم هذا وزراؤهم وأمراؤهم وعمّالهم ، أما الرعية فكانت كبش التضحية .

فالوزير ابن الفرات كان يستغلّ من ضياعه فى كل سنة ألفى ألف دينار وينفقها . قيلَ إنه كان لا يأكُل إلا بملاعق من البلّور ولا يأكل بالملعقة إلا لقمة واحدة . فكان يوضع له على المائدة أكثر من ثلاثين ملعقة . . .

وهاك هذه الحكاية الطريفة عن الوزير المهلّبى : « كان له ندماء يجتمعون عنده فى الأسبوع ليلتين على اطّراح الحشمة أو التبسط فى القصف والخلاعة وهم : ابن قريعة ، وابن معروف ، والقاضى التنوخى وغيرهم ، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها ، وكذلك كان الوزير المهلبى . فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ، ولذّ السماع وأخذ الطرب منهم مأخذه ، وهبوا ثوب الوقار للعقار (١) ، وتقلبوا فى أعطاف العيش ، بين الخفة والطيش ، ووضع فى يد كل واحد منهم كأس ذهب من ألف مثقال إلى ما دونها ، مملوءاً شراباً قطربّليّاً أو عكبريّاً ، فيغمس لحيته فيها بل ينقعها حتى تتشرّب أكثره ، ويرش

---

(١) العقار : الخمر .

بها بعضهم على بعض، ويرقصون أجمعهم، وعليهم المصبّغات ومخانق البَرَم[١] والمنثور[٢]) .

إن الثروة التى كانت فى بيوت هؤلاء تكاد أخبارها لاتصدّق . أما الشعب المسكين فكان فى كل قطر طريد الفقر والبؤس ، تأكل رغيفه الجباة المتكفلون بجمع المكوس والضرائب وليس من يسألهم عما يفعلون . لا يهمهم إلا جمع المال ليدفعوا ما تكفلوا به للولاة ، ويصبحوا هم أغنياء يعيشون كالطبقة العليا . اقرأ رسالة بديع الزمان التى يشكو فيها البخترى .

فالخليفة ، أو الإقطاعى الذى استبدّ بقطر من الأقطار ، ورجال هؤلاء وأهلوهم ، وأتباعهم ، وأتباع أتباعهم ، أولئك كلهم هم الغارقون فى النعيم ، أما الشعب المسكين فكله فى جحيم ، وتجبى منه الضرائب مثنى وثلاث ورباع ، وتنتابه المجاعات من حين إلى آخر ، فيلجأ إلى سلطان ربما سمع صوت الرعية ورثى لها ، وربما لا . كل هذا توضحه لنا رسائل بديع الزمان .

٣ ـ الحالة الأدبية

هذا العصر الذى سميناه عصر « الحضرات » تستطيع أن تسميه بحق زبدة الحقب . لقد نكبت فيه الخلافة بمجدها وعزها وأبّهتها، ولكنّ الأدبَ كان له فى كل مصر مرتع ، فلا تكاد تضيق مدينة بشاعر أو كاتب أو عالم حتى ينتقل إلى غيرها ليحل فيها على الرحب والسعة . لا بل كان هؤلاء الملوك الصغار يستقدمون إلى « حضراتهم » كبار الشعراء والكتّاب ويستزيرونهم . وحادث الصاحب بن عباد مع المتنبى مشهور . ثم ألم يستقدمه كافور وابن العميد وعضد الدولة . . . أجل كثر فى هذا العصر الملوك والوزراء المتشبهون بالملوك ، فكثر الروّاد من أهل الأدب ورجال العلم ، فنفقت المنتوجات القلمية فى أسواق العواصم . . . واشتد التنافس بينهم فأدّى ذلك إلى تنافس الشعراء وكدّ أفكارهم ليأتوا بالبدع . فهذه حضرة سيف الدولة فى حلب تتسع لأعظم شعراء

---

(١) المخانق : جمع مخنقة وهى القلادة . والبرم : ثمر شجر العضاة .

(٢) « يتيمة الدهر» جزء ٢ ص ١٠٦

العصر وكتّابه وعلمائه ، وعلى حضرته هذه قس الحضرات الأُخر ، وإن كانت دونها ، كالحضرات السامانية ، والبويهية ، والزيارية ، والغزنوية والسبكتكينية حتى الخَلَفَيّة . فهذا أحمد بن خلف ، على ضيق رقعة ملكه فى سجستان كان معطاء يحب العلم والعلماء حتى قال فيه ابن الأثير المؤرخ : « وكان خلف مشهوراً بطلب العلم وجمع العلماء ، وله كتاب صنفه فى تفسير القرآن من أكبر الكتب » . . .

خص « بديعنا » خلفاً هذا بمقامات ورسائل ، وقد يكون هو أول من فتح أبواب الرزق بوجه « الهمذانى » حتى صار ملاّكاً كبيراً فى هراة ، كما يتضح من رسالة كتبها إلى أبيه يدعوه إلى الإقامة عنده فى هراة قال :

« فلِمْ لا ينشط ! والله لا يضيع بذلك المكان درهماً إلا عوضته ديناراً ، ولا يعدم هناك داراً إلا أفدته دياراً ، أخاف والله أن أموت وفى النفس حاجة لم أقضها ، ومنية لم أحظ ببعضها . لا يفعل سيدنا الشيخ والضن بالولد أولى من الضن بالبلد . وقد رسمت لموصل كتابى هذا أن ينقده مائة دينار بشرط أن يخرج ، وأن يرتب له عمارة شتوية تسعه والشيخ الفاضل العم ، فليتفضلا ، وليقوما ويرحلا . ويستصحب الأخ أبا سعيد ، وليأتنى بأهله أجمعين ، فما يعجبنى لقاء ليس له بقاء ، فإن لم يمكن استصحاب القوم فلا يتأخر بنفسه. فسيرد على خمسمائة نيران[1] وألف أكّار ، وأحوال منتظمة وأسباب مستقيمة » .

أرأيت ماأحرزهذا الأديب من ثروة ! ! خمسمائة نيران ، أى خمسمائة زوج بقر ، وألف عامل تعمل فى أرض « سيدنا » الذى كتب فى أول أمره إلى الخوارزمى يعاتبه بما يلى : « الأستاذ أبو بكر ، والله يطيل بقاءه ، أزرى بضيفه إذا وجده يضرب إليه آباط القلّة فى أطمار الغربة ، فأعمل فى رتبته أنواع المصارفة ، و فى الاهتزاز له أنواع المضايقة ، من إيماء بنصف الطرف ، وإشارة بشطر الكف ، ودفع فى صدر القيام عن التمام ، ومضغ الكلام ، وتكلف لرد السلام ... ولست مع هذه الحال وفى هذه الأسمال أتقزّز صف النعال » .

---

(١) نيران : جمع نير .

تلك كانت حال الأدباء الموهوبين، يخرج أحدهم من بلده طريداً شريداً فيرد الحضرات فإذا لم ينفق فى بلد يمَّم بلداً آخر. ويظل على ذلك حتى يجد لبضاعته سوقاً، فيلبس إذ ذاك الديباج، ويركب البغلة، ويقتنى العبيد، ويبتاع الجوارى والغلمان . . . هذا إن لم يصبح وزيراً خطيراً له «حضرة» ينتجعها الأدباء والشعراء، كما فعل ابن العميد والصاحب ففتحا للأدب سوقاً كالتى فى حلب ومصر، وكل بلد فيه ملك من هؤلاء الملوك الذين ينافس بعضهم بعضاً فى تزيين حضراتهم بالأدمغة الكبيرة والعقول الراجحة والعبقريات النادرة. لقد كان هبوط الخلافة فى القرن الرابع ارتفاعاً للأدب، فلولا هذه الحضرات التى تدفقت منها الأموال كالأنهار لم يبدع الهمذانى مقاماته التى كان لها أبعد الأثر فى الأدب العربى.

إن عصراً عملت فيه ألف ليلة وليلة، وقصة عنترة، لهو عصر يستحق أن يُسَمَّى زبدة الحقب، كما قال أبو تمام فى وقعة عمورية . . . ما رأيت عصراً حفل بالأدباء والعلماء والشعراء كهذا العصر. أليس هو عصر المتنبى، وابن العميد، وابن عباد. والخوارزمى، وبديع الزمان، والتوحيدى، والصابى، وابن فارس، وابن دريد، والشريف الرضى، وابن حجاج، والثعالبى، وأبى فراس، وكشاجم، والفارابى، والأصفهانى، والجوهرى، والزوزنى، والأشعرى، والعكبرى، والتهامى، وابن يوسف، وابن سينا، والمعرّى، والقالى، والجرجانى، والطبرى، والمسعودى، والرازى، وابن النديم، وابن عبد ربه، وابن هانى، والنامى، والببغاء، والوأواء، وابن خالويه، وابن جنّى، وأبى على الفارسى؟!

كان فى كل قطر ملوك، وكان فى كل قطر رجال فأدّى هذا إلى إنتاج أدبى عظيم لم ير مثله فى العصور السابقة. إذا كان فى العصور الأولى بضعة عشر عظيماً، ففى هذا العصر من عظماء المملكة الأدبية عشرات ما ذكرت منهم إلا الرؤوس.

فابن لنكَك المحروم قال الهجاء المرّ كابن الرومى، وابن حجّاج وابن سكّرة وغيرهم أعادوا عهد أبى نواس فى المجون، ولولا أننا ننظر إلى آدابنا نظرة

الأثرى إلى « الأنتيكا » لقلت إن هذا العصر خير عصورنا الأدبية في الكمية والكيفية ، ولا أستثنى من القدماء إلا الجاحظ الذى لا يجارى ، وكلهم عيال عليه كما قال فيه ابن العميد .

كان الأدب فى هذا العصر صورة صادقة للحياة ، وما المقامات إلا وليدة مظاهر اجتماعية أشار إليها الجاحظ من قبل . إنه البؤس الذى فتق الحيل لابتزاز الأموال ، وإنه فساد الأخلاق الذى دعا البديع إلى تصوير الشذّاذ والمتشردين ، كما صور حالة العلماء ومجالسهم ، والأغنياء الحديثى النعمة الذين يريدون مجاراة كبار رجال الدولة فى قصورهم .

أما الترف والنعيم فيصفه هو وغيره ، ولعل هذا التأنق فى الإنشاء هو من وحى صور الحياة الاجتماعية . فهذه الزركشة فيه تومئ إلى الحياة الاصطناعية التى كان يحياها المترفون . وبالاختصار كان هذا العصر عصر علم وأدب وشعر وتأليف وفلسفة ، ولا تنس أيضاً أنه عصر الفاطميين ، الذين عمروا العقول بفلسفتهم ونظرياتهم ، والأرض بقصورهم ومبانيهم للحكمة والعلم والتعليم .

الفصل الثانى

بديع الزمان في عصره

١ ـ حياة بديع الزمان

ا ـ نشأته :

كنيته أبو الفضل ، ولقبه بديع الزمان ، واسمه أحمد بن الحسين . ولد فى همذان واستقرّ فى خراسان ، ومات فيها بمدينة هراة سنة ٣٩٨ هـ .

أما لقب بديع الزمان فلست أدرى كيف أحرزه . ما أحسب هذا اللقب إلا من صنعه ، أو من صنع صاحب اليتيمة لكى تتمّ له السجعة ويقول : « هو بديع الزمان ، ومعجزة همذان . . . » واتفاق اسمه مع اسم أبى الطيب يوقظ فى نفسى الشكّ . ولعل هذا الشك قد تسرّب إليها من قراءتى أولى رسائله الموجّهة إلى الفضل بن أحمد الإسفرائينى ، وهو أول من استوزر لابن سبكتكين ، فاتح السند والهند ، ومبيد الدولة السامانية التى بسطت سلطانها على فارس زمناً حتى استطال الناس مدتها . وتعجبوا من طول بقائها ، وقال فيها محمد بن زيد الداعى : « ما أشبه الدولة السامانية ، فى طول ثباتها وقلّة كفاتها ، إلا بالسماء التى رفعها الله بلا عمد . »

قال البديع فى رسالته إلى الإسفرائينى : « إنى عبد الشيخ واسمى أحمد ، وهمذان المولد ، وتغلب المورد ، ومضر المحتد . » ومن يصل بنسبه إلى مضر ، وهو فارسى لا شك فيه ، لا يبعد أن يطبّق المفصل ليكون له اسم شاعر الدهر أبى الطيب . . .

هذا ما يبدو لى فى اسمه . أما الذى جعلنى أشك فى اسم أبيه أيضاً ، فهو قول الحاكم أبى سعيد عبد الرحمن بن محمد بن دوست جامع رسائل البديع .

قال : حين بلغ الرسائل التى تبادلها البديع وأبوه : « ولوالده إليه كتب ورقاع أنشأها هو – أى البديع – ونسبها إلى والده ليقرأها الأفاضل من الكتاب فيستدلّوا بها على فضل والده .»

ومن يفعل هذا ، كما قال معاصره ، لا يخشى التصرف باسمه واسم أبيه ليأتى اسمه كما يتمنى ويرغب . وهب هذا هو اسم أبيه فلا شك عندى فى أنه بدون ال . أعرف جيداً أن الاسم لا يقدّم ولا يؤخّر ولكنها فكرة عرضت لى فلم أبقها فى صدرى .

كان معلمه الأول الأستاذ أبا الحسين أحمد بن فارس ، وفى الثانية عشرة غادر بلده . ولما بلغ الرىّ اتصل بالصاحب بن عباد غلاماً ، ولزم دار كتبه ، فطبع على غرار تلك المدرسة وتأثر أساليبها . وُهِب ذاكرةً قوية ، وحافظة نادرة ، فكان قفلَة لا يفلت من خاطره ما يعلق به . ولعل هذا هو الذى حمل معاصريه على القول فيه :

« إنه كان ينشد القصيدة التى لم يسمعها قط ، وهى أكثر من خمسين بيتاً ، فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها لا يخرم منها حرفاً . وينظر فى أربع أو خمس أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره ، نظرة واحدة ثم يمليها عن ظهر قلبه ، وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخر سطوره ، ثم هلم جرّا إلى الأول ويخرجه كأحسن شيء وأملحه . » إنها مبالغات نسبوا مثلها إلى المتنبى والمعرى وأبى تمام ، وهى عندى إلى الحكايات أقرب منها إلى التاريخ الرصين ، فليست الأذهان دفاتر ، ولا آلات تصوير شمسية حتى تحفظ وتلتقط آثار الأدباء كما هى .

أما قولهم : « وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخر سطوره » فهو مبنىّ على تلك الرسالة التى رواها لنا البديع فى مناظرته أبا بكر الخوارزمى ، ولعل هذه الرسالة هى التى أوحت إلى الحريرى مقامتيه : المغربية والقهقرية .

ثم غادر حضرة الصاحب وقصد جرجان ، حيث خالط علماءها وهم من الإسمعيلية ، فعاش بينهم حيناً مقتبساً من علومهم وفلسفتهم الباطنية . وانصرف

من عندهم إلى نيسابور فكانت له معركة أدبية فاصلة مع شيخ كتاب عصره أبي بكر الخوارزمى ، فهبت ريحه واغتنمها . . . وفى نيسابور أملى مقاماته المشهورة . ويزعم المؤرخون أنها أربعمائة عدا ، ولكن هذا غير صحيح . لم يقل ذلك أحد غير الهمذانى نفسه ، حين قال من رسالة ينتقد فيها قصيدة للخوارزمى :

« ولو أنصف هذا الفاضل لراض طبعه على خمس مقامات ، أو عشر مفتريات ، ثم عرضها على الأسماع والضمائر ، وأهداها إلى الأمصار والبصائر ، فإذا كانت تقبلها ولا تزجّها ، أو تأخذها ولا تمجّها ، كان يعترض علينا بالقدح ، وعلى إملائنا بالجرح ، أو يقصر سعيه ويتداركه وهنه فيعلم أن من أملى من مقامات الكدية أربعمائة لا مناسبة بين المقامتين لا لفظاً ولا معنى ، وهو لا يقدر منها على عشر ، حقيق بكشف عيوبه ، والسلام . »

وفى هذا المعنى أيضاً كتب رسالة تهديد ، أو إنذار بالحرب ، إلى أبي المظفّر فى شأن أبيه أبي الحسين البغوى الذى لا يعجبه نثر البديع ، فراح ينذره بأن من أملى من مقامات الكدية أربعمائة مقامة حقيق ألاّ يهاج لكشف عيوبه .

واستطاب البديع الأسفار بعد تغلبه على أبي بكر ، ولا سيما بعد أن مات هذا ، فراح ينتقل من حضرة إلى حضرة ، فجاب خراسان وسجستان وغزنة وكرمان متكسباً بأدبه من شعر ومنثور : مقامات ورسائل وقصائد ، فحسنت حاله بعد ما كانت حاشيته رقيقة يوم ورد على الخوارزمى أشعث أغبر منخرق السربال .

فاز البديع بأعطيات الملوك والوزراء والأمراء والرؤساء ، وكأنه رأى هراة نقطة الدائرة من تلك الحضرات فألقى فيها عصا الترحال ، وسعد جده فصاهر أحد أشرافها فاقتنى الضياع ومن فيها ، حتى كتب إلى والده يقول له ، كما مرّ ، تقع عينك على خمسمائة نيران وألف أكـّار . »

وحكى أنه مات مسموماً ، وقيل إنه مات بداء السكتة ، ودفن حيـّاً .

ب — فى هراة :

قضى الأستاذ أطيب أيامه فى هراة ، ولأجل هراة الجميلة لم يردّ على أمـّه ، بل هجاها ، كما سيمر بك . . . ولا بدع أن يطلق همذان من وقع فى شراك هذه البلدة الجميلة التى يصفها ياقوت فى معجم البلدان : « هراة مدينة عظيمة مشهورة من مدن خراسان . لم أر بخراسان عند كونى بها فى سنه ٦٠٧ مدينة أجلّ ولا أعظم ، ولا أفخر ولا أحسن ، ولا أكثر أهلاً منها . وفيها بساتين كثيرة ، ومياه غزيرة ، وخيرات كثيرة ، محشوّة بالعلماء ، ومملوءة بأهل الفضل والثراء . »

وكان الأستاذ هناك صهر البلد ، فقرّتْ عينه بعد تلك السخونة . كانت أيامه فيها حلوة لولا أبو البخترى الذى كدّرها عليه . ومع ذلك قضى فى أخريات العمر حياة لا كلفة فيها . ثم مات بغتة فاستراح من الأوجاع والآلام النفسية والجسدية ، ولكن تلك الفزعة التى لقيها فى القبر — إن صح أنه دفن حيـًّا — قد كفـّتْ ووفـّتْ .

أما حياته فى هذه المدينة الغراء فقد رسم لها الشيخ ، أوّلا ، صورة جدية ثم أتبعها بصورة أخرى هزلية . كتب البديع إلى الوزير الميكالى ابن أبي بريدة يقول :

« ولو رآنى الأستاذ وأنا فى قميص بأُذنين ، وقباء ضيـّق الردنين ، وعمامة كقبـّة الحجـّاج ، وخفّ فاسد المزاج ، أعلاه جراب ، وأسفله خراب ، على برذون عبدىّ التقطيع يرقص كالرضيع ، لعلم كيف تجرى الفرسان ، وكيف يمسخ الإنسان . »

ومع ذلك ، وإن كان الأستاذ على هذه الحال التى وصفها ، فهو يؤثر أن يظلّ بين أكـّاريه وبقراته ، ويعتذر فى آخر هذه الرسالة عن الشخوص إلى « حضرة » الميكالى حتى يقول فى ختامها :

« والله لقد رأيت يدى مجّت أفواه الأمراء والوزراء ، وقد نظرت يمنة ، فلم أرَ إلا محنة ، وعطفت يسرة ، فلم أرَ إلا حسرة . »

رحم الله أبا الطيب الذى قال :

وإذا الشيخُ قالَ أفٍّ فما مـــــلَّ حياةً ، ولكن الضعف ملاّ

الغنى بطرٌ . كان الهمذانى يقطع الفلوات إلى الحضرات ماشياً غالباً ، وراكباً حيناً ، مدّعياً بالسلب تارة على الأعراب ، وطوراً على الأتراك . وها هو هنا يعتذر عن الشخوص إلى « حضرة » الوزير الميكالى . وكأنى أتخيله بعد ما كتب الرسالة السابقة ، يطويها ويضعها تحت الوسادة ، ثم يأخذ ورقة أخرى ليدبِّج رسالة ثانية إلى صديق يصف له بقرة ويسأله أن يفتش عنها ويشتريها له . وكأنّى أسمعه يبربر متأففاً عند ما همّ بكتابة الرسالة : « استزارة البقر خير من زيارة البشر . . . » ثم ينكبّ ليكتب ما يلى :

« وقد احتيج فى الدار إلى بقرة يحلب درّها ، فلتكن صفوفاً تجمع بين قعبين فى حلبة ، كما تنظم بين دلوين فى شربة ، وليملأ العين وصفها كما يملأ اليد خلفها ، وليزن مشيها سعة الذرع كما يزين درها سعة الضرع . ولتكن عوان السنّ بين البكر والمسنّ ، ولتكن طروح الفحل رموح الرحل ، وليصف لونها صفاء لبنها ، وليكن ثمنها كفاء سمنها ، ولتكن رخصة اللحم جمة الشحم ، كثيرة الطعم سريعة الهضم ، صافية كالجون فاقعة اللون ، واسعة البطن وطيّة الظهر ، ممتلئة الصهوة فسيحة اللهوة ، لا تضيق بطنها عن العلف فيؤديها إلى التلف ، ترد الهول ولا تخافه ، وتشرب الرنق ولا تعافه ، واجهد أن تكون كبيرة الخلَق لتكون فى العين أهيب ، ضيقة الحلق ليكون صوتها فى الأذن أطيب ، واحذر أن تكون نطوحاً أو سلوحاً ، وإياك أن تبعثها ملوحاً أو رشوحاً . ولتكن مطاوعة عند الحلب لا تمنع نفسها ولا تكثر لحسها ، وداهية فى الرعى لأقرب سعى ، حمقاء على الحوض كالنعجة لا تأمن من البعجة ، ألوفة للراعى الذى يرعاها ، مجيبة لصوته إذا دعاها ، مهتدية إلى المنزل بغير هاد ، ذاهبة إلى المرعى بغير قياد . ولا أظنك تجدها ، اللّهمّ ، إلا أن يمسخ القاضى بقرة ، وهو على رأى التناسخ جائز . .

فاجهد جهدك وابذل ما عندك ، واجعل اهتمامك أمامك وحرصك قدامك

يوفق سعيك ويحسن هديك ، واستعن بالله تعالى فإنه نعم المولى ونعم المعين والسلام . »

حقاً لو وجدت هذه البقرة البديعية لاستحق صاحبها الوسام الزراعى من الدرجة الأولى ، وسهرت الدولة على سلامتها أكثر من البشر . . . الحمد لله الذى جعل من هذا السبّاب مزارعاً فخصّ البقر بالتفاتة أدبية كريمة لم يرمقها بها أحد من قبل ، وقلّما جاد هو بمثلها على إخوانه البشر . . .

٢ ـ رأى الكتّاب فيه

لا تعجبنى تلك الجيوش من النعوت الحرارة التى كان يحشدها الثعالبى حين يترجم لأدباء اليتيمة وشعرائها . فكأنه كان يفتش عن ألفاظ وتعابير لينظمها صفوفاً عسكرية تعرض فى ميادين الأذهان ، وتؤدّى التحية لكل ذى فضل . وهاك نموذجاً مما قاله فى المترجم له : « هو بديع الزمان . ومعجزة همذان ، ونادرة الفلك ، وبكر عطارد ، وفرد الدهر ، وغرة العصر ، ومن لم يدرك قرينه فى طرف النثر وملحه ، وغرر النظم ونكته . ولم ير ، ولم يرو أن أحداً بلغ مبلغه من الأدب وسره ، وجاء بمثل إعجازه وسحره . فإنه كان صاحب عجائب وبدائع وغرائب . . . »

ألا ترى معى أن صاحبنا الثعالبى يكيل المدح بالمدّ ، وأن مثل هذا الكلام أقرب إلى الهذر منه إلى الجد . عفواً لقد جاءت السجعة ، فكرهت أن أقول لها ما قاله جرير لصائدة القلوب[1] . . .

أما الحاكم أبو سعيد عبد الرحمن بن دوست ، جامع رسائل الهمذانى فكان كلامه موزوناً تقبله النفس . قال فى مقدمة الرسائل يصف البديع للذى سأله جمع آثاره : « وكان أبو الفضل طلق البديهة ، سمح القريحة ، شديد العارضة ، زلال الكلام عذبه ، فصيح اللسان عضبه ، إن دعا الكتابة أجابته

---

(١) يشير المؤلف إلى قول جرير :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا   وقت الزيارة فارجعى بسلام

عفواً ، وأعطته قيادها صفواً ، أو القوافى أتته ملء الصدور على التوافى . ثم كانت له طرق فى الفروع هو افترعها ، وسنن فى المعانى هو اخترعها . . . »

هذا كلام رجل يفصّل الثوب على القد فيقف عنده القارئ متأملا . أما القول : « بديع الزمان ، ومعجزة همذان ، ونادرة الفلك ، وبكر عطارد » ، فعبارات تحتوى على كل شىء ، وتكاد تكون لا شىء .

٣ – خَلق البديع وخُلقه

وصفه ابن دوست بقوله : « وكان أبو الفضل وضىّ الطلعة ، رضىّ العشرة ، فتان المشاهدة ، سحار المفاتحة ، غاية فى الظرف ، آية فى اللطف ، معشوق الشيمة ، مرزوقاً فضل القيمة . » أما صاحب اليتيمة فيقول فى هذا : « وكان مع هذا كله مقبول الصورة ، خفيف الروح ، حسن العشرة ، ناصع الظرف ، عظيم الخلق ، شريف النفس ، كريم العهد ، خالص الود ، حلو الصداقة ، مرّ العداوة . »

وأما البديع نفسه فيلقى بعض الضوء على شكله وطباعه ، حين يقول معتذراً فى إحدى رسائله إلى رئيس استقدمه إليه ، إنه : « همذانىّ المولد ، جَبَلىّ المنبت ، نارىّ المزاج ، ضعيف البنية ، يابس العظام ، حاد الطبع ، حديث السن . » إلى أن يختم هذه السلسلة بقوله : « ألا يرحم لحمى الضعيف فى هذا الهواء الكثيف ؟ والأمراض لا تعبث من عبده بشحم ولحم ، إنما تصل إلى العظم فتنقصه ، وإلى الروح فتستخلصه . »

وفى رسالة أخرى إلى رئيس بلخ وعميدها يصف أسلوب عيشه بعد الثلاثين فيقول : « ورقات تدرس ، وشجرات تغرس ، وشويهات تحرس ، واللّبَن الرائب ، والبرّ الخليط ، وعريش كعريش[1] موسى . »

إنها لحياة فلاح لا حياة رجل يملك ألف رقبة بشر وألف رأس بقر . . . كما قال لوالده . ولعلّ الأستاذ هنا ، على عادة ذلك العصر ، يخفى ما يملك

---

(١) العريش : الكوخ .

إما خوفاً من الطمع فيه ، وإما طمعاً بأعطية من هذا الرئيس العميد . وعلى كل حال أرى أن الخلتين : طالب علم وطالب مال ، قد اجتمعتا فيه ، وصاحباهما لا يشبعان .

كان شيخ همذان فى صباه وشبابه أخا سفر جوّاب أرض . جاء حضرة الصاحب ابن اثنى عشر ولزمها حتى اشتد ساعده ، ولعله تركها مغاضباً لأنه فى إحدى رسائله وقصائده يقف من الصاحب موقف النابغة من نعمانه . ثم ظل ينتجع الحضرات حتى بعدما أثرى واستقر فى هراة . لقد طاب له المقام فيها ، ولكن « الحيرى» و «ابن البخترى » والجباة كانوا يقضّون مضجعه مطالبين بدفع الضرائب ، والشيخ تعود أن يقبض لا أن يدفع . . . ولهذا ترى نيران الشكوى تتصاعد من رسائله سوداء قاتمة كدخان الأتون فى عدّانه الأول . . . ومن شدة إلحاح هؤلاء عليه نراه يختم رسالة لهذا العميد : « وأسأل الله خاتمة خير وعاجل وفاة ، إن بطن الأرض أوسع من ظهرها وأرفق بأهلها . » كما يقول فى رسالة أخرى : « والله لولا يد تحت الحجر ، وكبد تحت الخنجر ، وطفلة كفرخ يومين قد حببت إلى العيش ، وسلّت عن رأسى الطيش ، لشمخت بأنفى فى هذا المقام ، ولكن صبر جميل والله المستعان . »

ولقد وصف هو نفسه وصدق فى الوصف حيث قال :

خُلِقتُ كما ترى صعب الثقافِ	أردّ يد المعاند فى الخلافِ
ولى جسدٌ كواحدة المثانى	له كبد كثالثة الأثافى
هلمَّ إلى نحيف الجسم منى	لتنظر كيفَ آثار النحافِ

كان العرب يقولون غليظ الكبد . أما صاحبنا فصوّر تلك الغلاظة أصدق تصوير . إنه سبّاب شتّام ، همّاز غمّاز تخشى بوادره ، وحسبك منه ما رواه عن نفسه فقال : « قدمت على الصاحب ولى اثنتا عشرة سنة ، فبينا أنا عنده فى دار الكتب إذ دخل أبو الحسن الحميرى الشاعر ، وكان شيخاً مبجّلا ، فقالوا له : إن هذا الصبى لشاعر ، يعنونى بذلك . » أما الشيخ فنظم له بيتين

مهذّبين ليختبر ما عنده ، فأجابه البديع جواباً بذيئاً لا يصدر إلا عن الرعاع . ومن يطلع على نثره وشعره الصاحبين يرى أن شيخنا ، إذا استولى على أمد الغضب ، يستعمل الخاء والراء وكأنه ينثر المسك والند والعنبر . . . غضوب حتى الثورة المجنونة . وكما أن الفرن والتنّور لا يخرجان الخبز رافخاً إلا إذا حميا ، كذلك كان بديع الزمان .

قال الحجّاج فى جرير : « إنه لجرو هراش » ولعل هذه تصدق على شيخ همذان . فهو أنانى لا يرى فوق نفسه من مزيد ، والويل لمن يفضّل الخوارزمى عليه ، فما عنده له غير النار والكبريت . وحسبك أن تقرأ قوله فى الرســائل والمقامات : « من لقينا بأنف طويل قابلناه بخرطوم فيل » لتدرك مبلغ شراسته ، وهذا شأن كل من يضخم أمره بعد عسر ، ويستغنى بعد قلّة . إن هذه الخصال الطاغية، والاعتداد بالنفس الذى يجرّ إلى الحطّ من قدر الآخرين ، كانت تقلقل دائماً مركز الشيخ ، فينتقل من حضرة إلى حضرة تاركاً فى كل واد أثراً من ثعلبة . . . قال فى رسالته لأبى نصر المرزيان يوضح له لماذا خرج من جرجان ووقع فى خراسان: « أما السبب فهو أن أناساً غيّروا السلطان ولا أعلم كيف احتالوا ، وما الذى قالوا . . . وأشار علىّ إخوانى بمفارقة مكانى ، وبقيت لا أعلم أيمنة أضرب أم شآمة ، ونجداً أقصد أم تهامة . ونظرت فإذا أنا بين جودين : إما أن أجود ببأسى وإما أن أجود برأسى ، وبين ركوبين : إما المفازة . وإما الجنازة . وبين طريقين : إما الغربة ، وإما التربة . وبين راحلتين : إما ظهور الجمال، أو أعناق الرجال . »

لم يكن الدهاء ينقص شيخنا الهمذانى ، فهو واسع الحيلة ، طبّ كعنترة بأخذ الأمراء والوزراء . يصيب مقاتلهم — ولو مؤقّتاً — يصميهم بسجعه ، وينصب لهم شرك الإطناب ، وهم أبله من الحمام فيسقطون فيها .

أرانب غير أنهم ملوك مفتحة عيونهم نيــامُ

وهكذا لم يبقَ ملك منهم إلا قرّص أبو الفضل عجين «حضرته» وجدح منه سَويقه . . . ولا أستبعد أن يكون مات مسموماً ، لأنه لم يسلم من لسانه أحد.

فالأنانية هى القطب الذى دارت عليه رحى حياته ، أقلقه حب الظهور

وأزعجه ، فلا يكاد يسمع أن أحداً قدّم عليه كاتباً حتى يهبّ لمقاضاته كأن له عنده ديناً ، فتراه فى كل مقام يمجن ويمزح ويتهكم ، بل يكشف العورات ليرينا أنه قادر على القول فى كل غرض ، فهو من هذه الناحية أسلط لسان وأقذع هجّاء ، بل هو أحسد من مشى عليها . وحسبك منه أنه أراد أن يضع نفسه فوق الجاحظ كما سترى ، فهو لو يستطيع أن يمحو معالم العبقرية من الدنيا حتى لا يبقى إلا هو لفعل . وقد أحسن ابن شهيد حين سمى فى « التوابع والزوابع » . شيطان البديع « زبدة الحقب » . فشيخنا ، غفر الله ذنوبه ، كان كبطل مقاماته يدور مع الزمان كيفما دار ، فكل من يتغلّب وجبت عليه مدحته ، يهمه أن يفوز ولو بشىء من الأسلاب ، ولتكون فيما بعد كلمته مسموعة عند أولى الأمر ، فيوصيهم بهذا ، ويسألهم قضاء حاجة ذاك ، لينعم بجاه ونفوذ بين الجماعة الذين حلّ عندهم .

كان يتشيع ويتسنن مطابقاً مقتضى الحال ، ولا لوم عليه ولا حرج ، ولعل الأبيات الآتية من شعره تصور لنا ما انطوى عليه :

ويكَ هذا الزمان زورُ ... فلا يغـرنّك الغرورُ
زوّقْ ، ومخرقْ ، وكُلْ ، وأطرقْ ... واسرقْ ، وطَلْبِقْ ، لمن تزورُ
لا تلتزم حالةً ولكن ... دُرْ بالليالى كما تدورُ

ولا بدع أن أتى هذا ممن لا يظنّ بالناس إلا شرًّا ، فيقول لنا فى ديوانه :

كَذاكَ الناسُ خدّاعٌ ... إلى جانب خـدّاعِ
يعيثونَ مع الذئبِ ... ويبكونَ مع الـراعى

وكأنّ الشيخ ، غفر الله له ، قد علم أنه فظ غليظ القلب والكبد ، وكان يتوقع من الأيام أن تكسر شرّته وتعدّل أخلاطه ، ولكنه يئس أخيراً من كل خير طلبه عند الليالى ، فصاح هذه الصيحة المؤلمة :

خليلىّ واهاً لليالى وصرفهـا ... لقد ثقفت إلا كعوب خلائقى

٤ ــ شخصيته

يقررّ البديع قضية يسميها الخراسانية الهمذانية ، وكأنه مسلـّم بها ، فى رسالة إلى الوزير أبى نصر بن أبى بريدة ، وهى منشورة بكاملها فى مختارات الرسائل ومنها يقول : « وإن فعلت فلأنى خراسانى : وأعز موجود فى الخراسانية الإنسانية . »

ويوضح هذا أكثر فى رسالة أجاب بها أستاذه أحمد بن فارس ، وهى منشورة برمتها أيضاً : «واثنتان ، أيده الله ، قلما تجتمعان : الخراسانية والإنسانية . وأنا وإن لم أكن خراسانى الطينة فإنى خراسانى المدينة ، والمرء من حيث يوجد ، لا من حيث يولد ، والإنسان من حيث يثبت ، لا من حيث ينبت ، فإذا انضاف إلى خراسان ولادة همذان ، ارتفع القلم ، وسقط التكليف . فالجرح جبار ، والجانى حمار . »

ترى ما خطب خراسان وهمذان ؟ يروى الجاحظ فى « بخلائه » حكاية ديك مرو ، وحكاية خاقان بن صبيح عن مسرجة رجل من أهل خراسان وفتيلتها الدقيقة ، والعود المربوط فيها ، وما دار بين المروى والخراسانى من دروس اقتصادية ختمها خاقان بقوله : فنى تلك الليلة عرفت فضل أهل خراسان على سائر الناس ــ أى فى البخل ــ وفضل أهل مرو على سائر أهل خراسان . »

ولست أظن البديع يعنى غير هذا بكلمة « الإنسانية » . أليس هو فى صراع دائم مع العمال والجباة ، ومع أبيه وعمه ، فبعد أن أصبح ذاك الثرى صاحب الخمسمائة نيران وألف أكـّار لم تجد نفسه على أبيه إلا بمئة دينار ، ولا تدفع له إلا بشرط أن ينتقل إلى هراة ، والشيخ لا يترك وطنه ، فكأن الولد يعجـّز أباه حتى لا يعطيه شيئاً من ثروته الطائلة .

ويظهر أن الوالد عجز عن أن ينال شيئاً من ولده الذى تكنـّى بأبى الفضل ، ولا فضل ، فاستكتب أمـّه رسالة فى هذا الموضوع . ولكن بديع الزمان صخر لا يؤثر به شىء حتى مرداة عمرو بن كلثوم الطاحنة . فما ردّ عليها ، بل قال فيها هذه الأبيات الثلاثة :

وعجوز كأنَّها قوسُ لامٍ فلقوها من نبعة شرّ فلقِ
كاتبتنى شوقاً إلىّ وقالتْ : أخذَ اللهُ يا بنىَّ ، بحقى
قلتُ لا أستطيعُ تركَ بلادٍ قد وفى الله فى ثَراها برزقى

وكتابه لأستاذه ابن فارس أليس شهادةً صارخةً على الخراسانية والإنسانية؟!
لماذا يشكو الدهر ابن فارس ؟ أليس لأنه فى خصاصة وبلغه أن تلميذه أمسى من الأغنياء والأستاذ فى حاجة إلى ما يتبلّغ به ، فما كان من الأستاذ البديع إلا أن أجابه عن الكلام بكلام ، واحتجّ بالخراسانية والهمذانية بكل وقاحة . . .

هذه واحدة وهى البخل وهو شر الخصال ، وأضف إليها واحدة أخرى أبشع منها وهى الكبرياء ، فالأستاذ أبو الفضل ، غفر الله له ، بلغ بالكبرياء حد التعجرف والطغيان ، « فالقيام له » فى المجالس ، عند القدوم والذهاب ، أمر لا هوادة عنده فيه . بدأ بذلك عند الخوارزمى ، وكانت عاقبته تلك المعركة الأدبية التى تجاوز فيها البديع حدود أدب اللسان ، فكان أشبه بأبناء الشوارع ... عتب الأستاذ على أبى بكر لأنه « دفع فى صدر القيام عن التمام » أى لم تنتصب قامة الخوارزمى الانتصاب التام ، حين استقبل البديع ، فشنّ هذا عليه الغارة .

وهذا « القيام » يرافقنا فى رسائله . فها هوذا يدبج رسالة إلى أبى سعيد بن شابور لأنه قام له حين دخل عليه ، ثم ترك القيام حين خرج من عنده ، فحشد عبارات اللوم والتعنيف ، قال : « فأول ما أعتب عليه قعوده فى المجلس عمّا بذله فى أوله ، وتثاقله فى عجز الأمر عما حرص عليه فى صدره ، من توفير سلام ، وإيفاء قيام . . . على أنى دخلت عليه وأنا أحمد الهمذانى ، وخرجت من عنده وأنا أحمد الهمذانى ، فإن كان قيامه قد سرّ ، فقعوده ما ضرّ .
وبلغنى أن كاتبه أبا الفضل بن نصرويه حكم للخوارزمى علىّ بالفضل .

فقلت ولم أملك سوابق عبرتى متى كان حكم الله فى كرب النخل

وأما ذلك الوقح الوسخ ولا أعرف اسمه ، وأحسب أن كنيته أبو الفضل ، أو أبو الطهر ! وما كان فهو اسم مفخّم ، ومعنى مرخّم . فما أحوجه إلى سونيز عقل ، وسعتر فطانة ، حتى تحلّ مكالمته . وما كان أحسن حال السادة عند اللقاء حتى

يكون حاله . نعم استنّت الفصال حتى القرعاء . » وفى ختام هذه الرسالة يعين مكاناً للاجتماع عند الشيخ أبى القاسم ليعتذر إليه عما جرى من تقصير بحقه .

وهناك مكتوب آخر يوجهه إلى القاضى أبى نصر بن سهل أمرّ من هذا لهجة إذ يقول : « ما للقاضى ، أعزه الله ، يلقانى بوجه كأنه الزقّوم ، ويرانى فلا يقوم ؟! أنا أسأله أن يقتدى بغيره لا . . . ألست لقيامه أهلا ! لعن الله أكثرنا جهلا ، وأقلّنا فضلا ، وأخسّنا أصلا . تلك القلنسوة ليست بأول قلانس الحكام ، وتلك الشيبة ليست بأول شيبة فى الإسلام ، ونحن نخ . . . فى خير من تلك القلنسوة ، ونصفع خيراً من تلك القَمَحْدُوة (1) . فليحسن العشرة معى من بعد ، ولست من رعيته ، وليجمل الصحبة فى ظاهره إن لم يجملها من نيّته . أو فليفعل ما شاء فإنها شقشقة هدرت ، والجميل أجمل والسلام . »

ألا ترى معى أن الأستاذ يفرض نفسه على البشرية فرضاً ، وأنه يشبه بشاراً من هذه الناحية كل الشبه ، فهو ينحى باللوم والسب والشتم على من لا يرضى غطرسته وكبرياءه ، أو يفضل الخوارزمى عليه .

قد يقال لماذا لم يعنك إلا بخل الأستاذ وكبرياؤه ؟ الجواب أن كبرياء الأستاذ خلقت رسائله النارية ، وبخله وحبه المال أبدع مقاماته الطريفة ، كما سترى .

---

(1) القمحدوة : مؤخر القذال .

الفصل الثالث

جوانبُ بَديعِ الزّمان

١ – آثار البديع

ليس لبديع الزمان من آثار غير الرسائل والمقامات والديوان ، وهذه كلها لو جمعت فى كتاب واحد لما بلغ حجمه حجم ديوان البحترى ، ولكن الأدب ليس كالحطب ليباع بالقناطير ، وهو لا يقاس بالكيلومترات كالصحارى ، فهذه الآثار ، على صغرها ، بوّأت الرجل منزلته العليا فى الأدب العربى ، فكان بعيد الأثر فيه .

وليس هذا النثر ولا هذه الرسائل من مواليد القرن الرابع . فالسجع قديم الميلاد كبير السن ، والرسائل هى لغة الناس الطبيعية ، وقد استعملوها حين عرفوا الورقة والقلم . كانوا يعتمدون فى بدء أمرهم على الوفود ، فيهئ الزعيم بضع عبارات يعبر فيها عن غرض الجماعة الذين استسفروه ، ثم نابت الرسائل عن وفود القبائل . كانت الرسالة العربية ، فى بدء عهدها ، وجيزة قصيرة ، صريحة واضحة ، لا تفخيم فيها ولا مداورة ، كرسالة عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص : « أما بعد ، فقد ظهر من مالك ما لم يكن فى رزقك ، وما كان لك قبل أن أستعملك ، فأنّى لك هذا ؟ فاكتب إلى من أين لك هذا المال ؟ وعجّل . »

وكما كتب أحد الخلفاء إلى أحد عماله : « أحببناك فولّيناك ، اختبرناك فعزلناك ، يدك فى الكتاب ، رجلك فى الركاب ، والسلام . »

وكما كتب غيره إلى عامل له ينذره : « كثر شاكوك ، وقلّ شاكروك ، فإما اعتدل وإما تعتزل ، والسلام . »

ولما آلت إمامة رسائل الدواوين إلى الفرس المستعربين طال سَفَرُ الكلام، وتمطت المقدمات. فمطّوا ما شاؤوا، وأكثروا التبجيل والتعظيم. ومشت الرسالة مع الدهور والعصور فصارت آلة الوزارات وسلّمها، واستقل، إذ ذاك، أدب الرسائل، فوضعت له خطط ورسوم اتّبعها كتّاب الدواوين وغيرهم من المترسلين. ولما جاء القرن الرابع عُنى مشاهيره بتجويدها. فدبّجوها وزوّقوها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. ولما كان السلطان لمن ينتزعه انتزاعاً أخذ هؤلاء الكتاب المترسلون يبجلونهم ويعظمونهم طمعاً بما عندهم من نهاب وسبايا، وخوفاً من سيفهم المسلول ولا يدرى متى يقع ويحصد.

وكان البديع من فرسان هذا الميدان فكتب وحبّر، وعرض بضاعته فى الأسواق الأدبية فراجت. وهبت ريحه حين ناظر أبا بكر الخوارزمى، شيخ المترسلين فى ذلك الزمن، فراح ينتقل من حضرة إلى حضرة وفى خُرْجه رسائله ومقاماته وقصائده. كان له الإبداع والخلق فى المقامات، والتفوق فى الرسائل، والسوق الماشية فى الشعر . . .

ا — رسائله :

البديع فى رسائله يصح فيه قول الأخطل فى الفرات :

وما الفرات إذا جاشت حوالبه	فى حافتَيه وفى أوساطه العشرُ
مسحنفرٌ من جبال الروم يستره	منها أكافيفُ، فيها دونَه، زَوَرُ

هذا هو بديع الزمان فى رسائله. هائج صائل، يكسر الجرّة خلفَ المولى ويسبّ أباه وأمه إذا اقتضت الحال، وينقش بساط من يلى الأحكام بشفتيه، ويسجد لمن عنده المال . . . كنا نفتش، حين ندرس شاعراً، عن رسالة نستدلّ بها على ما عنده من طباع وأخلاق وشيم، أما الآن فنحمد الله على أن أمامنا مجموعة رسائل تدلنا على كل ما عند صاحبنا الهمذانى.

فهذا الزخرف والنقش والتزوير، وهذه المبالغة والتواضع لمن يمدح، أو لمن يطمع منه، ولو بكلمة ثناء، دليل صارخ على ميراثه الجنسى، فهو فى سبه وشتمه فى هذه الرسائل، أشبه بالساسانيين، فأخلاقه أخلاقهم، وبضاعته

بضاعتهم . إن الصنعة فى رسائله أكثر منها فى مقاماته ، فهو هنا يترسّم خطى الصاحب فلا يدع سجعة تفلت منه ، بل يشمّر وراءها ليقتنصها ويوسع لها المحل اللائق بها .

إنه يختلف عن معاصريه فى صوره الفارسية التى رسمها قلمه بدقّة ، فاستعار من لعبة الشطرنج صوراً بارعة ، وأغرق فى التشابيه ، والاستعارات ، والكنايات والمحسنات اللفظية ، والرمز ، والتلميح والإشارات ، فجاء كلامه مزوّقاً مزخرفاً ككل شىء فى ذلك العصر. ولذلك بلغ به اعتداده بهذا الزخرف والبهرج أن تطاول إلى مقام الجاحظ ، فقال فى إحدى مقاماته : وهل للجاحظ غير عريان الكلام ؟

وكان الأدب العارى من سمات بعض معاصريه فجاراهم هو فى هذا المضمار ، فما نزه قلمه عن الألفاظ البذيئة فى رسائله ، ولا عن الحكايات المنحطة فى بعض مقاماته . استجدى فى آثاره الثلاثة ومدح ، وعزّى وعاتب واستعتب ، وسبّ وأوصى وتوسل ، فجاءت هذه دليلاً صارخاً على أخلاقه وطباعه ، أما اللون الصارخ فى الرسائل الهمذانية فهو الشكوى والسبّ والتذمر .

أما صناعة البديع فهى واحدة فى شعره ونثره ، ولكنه فى الرسائل والشعر متعمّل ومتصنع بينما هو فى المقامات رجل فن كما سترى .

كان البديع ، كزملائه كتّاب هذا العصر ، يغير على أبى الطيب وغيره من قدماء ومحدثين فيحل منظومهم كما حل الخوارزمى بيت المتنبى فقال : « فم المريض يستثقل وقع الغذاء ويستمرّ طعم الماء[١] ، » وكذلك فعل البديع فشنّ غارات شعواء عليه وعلى غيره ، ففصل ذلك الشعر على هنداز منثوره ، فقال فى رسالة إلى سهل بن محمد بن سليمان : « لو تعمّد فىّ الردى ، لصرت إليه مشرق الوجه راضياً ، وألوفاً لو رددت إلى الصبا ، لفارقت شيبى موجع القلب باكياً[٢] »

---

(١) بيت المتنبى :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا

(٢) بيت المتنبى :

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

وكما كتب إلى القاسم الكرجى : « وقد حضرت داره وقبلت جداره ، وما بى حب الحيطان لكن شغفا بالقطّان ، ولا عشق الجدران ولكن شوقاً إلى السكان[١] » .

وأما الجناس فكان عند هؤلاء غاية غايات الإبداع ، فاقرأ رسالته التى كتبها إلى سعيد الإسماعيلى يشكو العرب مدّعياً أنهم قطعوا عليه الطريق ، فراح فيها يذم الدهر الذى « ما ترك فضّة إلا فضّها ، ولا ذهباً إلا ذهب به ، ولا علقاً إلا علقه ، ولا عقاراً إلا عقره ، ولا ضيعة إلا أضاعها ، ولا مالا إلا مال إليه ، ولا حالا إلا حال عليه ، ولا سيداً إلا استبد به ، ولا بزّة إلا بزّها ، ولا خلعة إلا خلعها . »

ولا تنس أن الشيخ كان يحلى كلامه بما يدور من الكلام الذى صقلته ألسنة العوامّ ، كما فى رسالته إلى الشيخ أبى جعفر الميكالى يستميحه : « أو لم تكن خمر فخلّ ، وبذل الموجود غاية الجود ، ومَاشْ خير من لا شْ[٢] ، وحمار هو خير من فرس ليس ، وزيت خير من ليت ، وعصفور فى الكف خير من كركىّ فى الجوّ . »

وأحياناً كان يترسم خطى الصاحب وابن العميد فى استعمال حروف الجر ، فيكتب إلى أخيه : « وجدتنى بك آنس ، وعليك أقدر ، ولك أملك ، وفيك أنطق ، ومعك أجرأ وأجرى . »

وهو مع تلك الحرية فى استخدام الألفاظ يجيب الوزير أبا العباس الإسفرائينى خاتماً الرسالة بقوله : « وخلة أخرى ، وهى أنى مفتون بكلامى ، معجب بصوب أقلامى وذوب أفكارى ، لا أزفّه إلا لمن يعتقد فيه اعتقادى ، ويميل إليه كفؤادى ، وينظر إليه بعين رأسى . »

ومن طبيعة الهمذانى أن يغالى مادحاً وهاجياً وشاكراً ، فالاقتصاد فى الكلام ليس من طبعه ، فيقول مثلا للشيخ أبى العباس : « وإن أرضيتنى فى ذلك

---

(١) أخذ هذا من ذاك الشاعر الذى قال :

أمر على الديار ديار ليلى ... أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبى ... ولكن حب من سكن الديارا

(٢) استعملها الجاحظ بمعنى لا شىء .

الحديث ، من صاحب المواريث ، فيدٌ غرّاء ، لا تسعها الأرض والسماء . »

أما المناداة بالويل والثبور فتراها فى رسائل الشكوى من القضاة والجباة حين يقربون صوب كيسه فتقوم إذ ذاك القيامة . وإذا أرضاه الحاكم بقضاء حاجة أو بتعظيم بالقيام — وهذا يهمه كثيراً — هاجمه بطوفان من المديح كأن يقول : « فقبلت من يمناه مفتاح الأرزاق ، وفتاح الآفاق . وصادفت من الشيخ ملكاً يشاهد عياناً ، وجبلا قد سمى إنساناً ، وبحراً أمسك عناناً . »

ثم يستطرد إلى الخورازمى فيقول مشيراً إلى تغلبه عليه بتلك المناظرة : « ومتى استزاد زدنا ، وإن عادت العقرب عدْنا . وما كنت أظنه يرتقى بنفسه إلى طلب مساماتى بعد ما سقيته كأس الحنظل ، وأطعمته الخ . . . بالخردل . فإن كان الشقاء قد استغواه والحينُ قد استعواه ، فالنفس منتظرة ، والعين ناظرة ، والنعل حاضرة . »

ثم يستمطر فى الرسالة وابل شتائم لا يحسن سردها سواه ، وما رأيتها تنقاد إلاّ لهُ . ولا تنس أن للأستاذ فى رسائله مراجعات ، فما كتبه إلى الإسفرائينى فى فتح بهاضية رأيناه يكرره لأستاذه ابن فارس . وفى الرسائل أيضاً تكرارات لبعض ما جاء فى المقامات . وكان كثير المعاتبة فى رسائله المرة ، وهو فى هذا ابن عم ابن الرومى ، يضيق صدره بمن يحتجبون عنه . ولسيدنا الشيخ رسالة أشبه برسائل المهاجرين إلى أهلهم عندنا ، مشحونة « سلامات » إلى هذا وهاتيك وتلك ، ويقول فيها عن عودته إلى همذان ما تعود هؤلاء أن يقولوه معتذرين عن الرجوع إلى الأوطان . . .

وبعد ، فرسائل البديع لا تملّ ، وإن كانت تدور على لولب واحد ، وهو الشكوى والتذمر فى الغالب . وقد بدا لى أنه لا يوفق فى إخوانياته توفيقه فى هجائياته ، فمدحه فارسى جامد ، وتشوقه أقل من هامد ، ولذلك لا تراه يجيد إلا إذا هجا أو ذم ، وما أظن أحداً ، شاعراً كان أم ناثراً ، بلغ من هجو « القاضى » ما بلغه البديع من ذم أبى بكر الحيرى ، فهذه الرسالة آية من آيات الشعر الرفيع فى الهجاء .

إن نفس البديع المشتعلة تشغلك بها عن الصنعة فى رسائله وأكثر مقاماته ،

فهو يندمج فيما يكتب من موضوعات فتخرج كأنها جزء منه ، فنقرأها ولا نشعر أننا نقرأ سجعاً نكرهه كرهاً يعادل محبتهم له فى ذلك الزمان .

ب — مقاماته :

إن خطة المقامات هى من عمل البديع ، فلا لابن فارس ولا لابن دريد يد فى صنعها . فالهمذانى هو الذى ألبسها هذا الطراز الموشّى ، وعلى طريقه هذه التى شقها سارت عجلة الأدب ألف عام . فعبثاً نحاول العثور على أثر لهذه الخطة عند غير البديع . أما المادة فسنرى أن صاحبنا قد قشّها[1] من هنا وهناك ، وكأنى به كان يحاول فيما سرده من قصص ، أن يكون له فى كل غرض قول يحاول أن يبزّ به المتقدمين وإنما بأسلوب آخر . يدلنا على هذا ما قاله فى « المقامة الجاحظية » بلسان بطله أبى الفتح — أى الهمذانى — يقول : « إن الجاحظ منقاد لعريان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة ؟ فهو بعيد الإشارات ، قليل الاستعارات ، قريب العبارات » .

لقد كفانا الشيخ الإمام محمد عبده ، منذ نصف قرن وأكثر ، مؤونة الرد على البديع حيث قال فى ما علقه من حواش على هذه المقامة : « وهذه الأوصاف التى يعدّها كأنها من مناقص كلام الجاحظ ، هى أعلى مزايا الكلام عند أهله ، وهى التى ترفع مقامه على غيره . وهذا المذهب الذى سلكه الجاحظ هو مذهب رجال البلاغة الأولين ، ومجال فرسانها السابقين . أما المصنوعات ، فهى من أحداث الموضوعات ، لا ينظر إليها إلا صبية هذه الصناعة[2] . »

فكأنى : بالبديع ، بعدما فرغ من أبى بكر ، قد أراد التطاول إلى سدة الجاحظ العليا فقشر له الإمام العصا ، ومن قرع الباب سمع الجواب .

لا تفتش عمن أخذ عنه البديع مقاماته فهو مبدعها ، ولا عبرة بالحكايات

---

(١) قشها : جمعها .

(٢) « مقامات الهمذانى » . طبعة بيروت ص ٨١ الحاشية

والنوادر فهذه كانت ولا تزال ، وقد نجد اليوم رجالاً كأنهم بطل بديع الزمان يحتالون وينصبون ، وينتقلون من مكان إلى مكان ، وفى كل مكان تراهم غيرهم ، ولكن إذا فتشنا مقاماته الإحدى والخمسين رأينا فى الكثير منها أشياء أخذها البديع من عند غيره ، وجلاها وأبرزها بأسلوبه المصنوع فصارت كأنها له .

فلنبدأ بالجاحظ . رحم الله ابن العميد الذى قال فيه : « كل الذين جاؤوا بعده عيال عليه . » فالمقامة العلمية التى يصف فيها البديع العلم هى معارضة لوصف الجاحظ للكتّاب ، ولكن أين البديع المليح من ذلك الوجه القبيح ! ! فقد قصر فيها عن أبى عثمان تقصيراً فاضحاً .

ومن قرأ بخلاء الجاحظ ووقف على حديث خالد بن يزيد عرف أن شيخنا الجاحظ هو أول من حدثنا عن القصص والتكدية ، والمكدين ، وأن البديع ، غفر الله له ، أخذ هذا الحديث أيضاً وفصّله مقامتين : الوصيّة ، والرصافية . وما أظن قصيدة أبى دلف الخزرجى المشهورة فى الساسانيين إلا من موحيات الجاحظ . وفى المقامة السجستانية سيماء من حديث خالد أيضاً ، وهناك ومضات أخَر نلمحها هنا وهناك .

وإذا انتقلنا إلى المقامات الأخرى رأينا الهمذانى يغير فى التى سماها المقامة الخمرية على أبى نواس وغيره . فبديع الزمان فى وصف الخمرة ومجالس اللهو ، وتهافت الشباب على الملذات ووصف الغلمان يريد أن يكون له فى النثر ما كان لأبى نواس وغيره فى الشعر . ولا عجب فنثر هؤلاء هو شعر طليق ، كالذى نسميه اليوم بالشعر المنثور . ولم يقف البديع عند هذا الحد بل جمع فى المقامة الحمدانية جميع أوصاف الخيل ، المتفرقة فى منظوم العرب ومنثورهم . ثم شاء أن يضرب فى النقد بسهم فراح يبارى الرواة فيه ، وذلك فى مقاماته : الشعرية والعراقية والقريضية فبدا فى اثنتين منهما رمّازاً ساخراً متهكماً .

أما التشاتم فى المقامة الدينارية ، فله شبيه فى حكاية أبى القاسم البغدادى وفى رسالة للخوارزمى . وإذا نظرنا نظرة عامة إلى هذه المقامات رأيناها معرضاً لصور الحياة الاجتماعية فى عصر البديع : عصر تحصيل المال من طريقيه

الحرام والحلال . فبديع الزمان يعالج فيها الأزمات النفسية والعقد الوجدانية الفاشية فى عصره ، ويرسم لنا صوراً اجتماعية أوحى بها إليه زمنه ومحيطه . رأيناه يصوّر لنا الغنى الطازج الحديث النعمة ، كما يصور لنا البطولة المقرونة بالدهاء ، ثم لا ينسى المدح الذى يستخدم له بطله أبا الفتح ، فيفتح الله عليه أبواب الرزق ، ويغرقه طوفان « خلف بن أحمد » . . . فالمقامات : الناجمية ، والنيسابورية ، والخلَفيّة ، والملوكية ، والتميمية ، والساريّة ، كل هذه جميعها فى مدح « خلف » الذى خلف على الهمذانى وأغناه ، ولا لوم ولا تثريب على البديع إن رأيناه يخصّ هذا الرجل الكريم بأكثر من عُشْر مقاماته . وبعض رسائله وقصائد ديوانه ، فما شكر السوق إلا من ربح .

إن فى حكايات البديع احتيالا ودهاء . فتارة يضحك ضحكة بلهاء وتارة صفراء ، كما يحدث لكل قارئ بعد مطالعة المقامة الأصفهانية ، إنك لتشمئزّ من عمل أبى الفتح بالمصلين حين تركهم فى سجدتهم الطويلة ، فتعجب من نفس ميتة يحملها جسد نتن لا يحترم أقدس أقداس البشرية إذا كان يفوز بالدون من حطام الدنيا .

وتمرّ بمقامات البديع فتعجب بالمقامة المضيرية إذ تراها قصة عصرية قد تنوء عن مضارعتها اليوم قصة فى تحليل الشخصيات ودرس النفسيات . وهناك فكاهة طريفة فى المقامة الحلوانية . والمقامة الأسدية والبشرية تعدّان من الأقاصيص ذوات العقد ، وإن كان إلى جانب هذه قصص كالمقامة الأزربيجانية التى تبدو كأنها كتبت بلا استعداد . . . فلا هى قصة ولا هى كلام طريف . وفى الجرجانية والبصرية يصور لنا الهمذانى من نسميهم اليوم « شحاذين بشرف » .

ويوفّق الأستاذ إلى صنع إطار لقصته بأوجز كلام كما ترى حين يصور لك بطل المقامة المكفوفيّة . أما فى المقامات المدحية « الخلَفيّة » فلا يوفّق الأستاذ لا فى القصّ ولا فى الطرافة ، وقد يجوز لنا أن نقول له كما قال هو لبطله : إنك لشحّاذ . وسنرى إذا كنت تشاركنا فى هذا الرأى حين تطالع بعضها فى مختارات المقامات .

أما الأسلوب فهوهو ، فالبديع خلاّق عبارات كقوله: ليلة نابغية ، وليلة في غير زيّها . . . إلخ ، كما أنه مغوار على غيره كما قلنا في غير هذا المقام . وقد رأيت تكرير عبارات وأفكار في المقامات والرسائل ولست أدرى أيهما أسبق ، ففي المقامة النيسابورية ، وهى في مدح خلف ، كلام مأخوذ من رسالته في هجو القاضي .

والرسالة التي تحمل رقم ١٥٦ في طبعة بيروت شرح الأحدب ، تشبه مقامة الوصية وبعضها منقول بالحرف . وفيهما كلتيهما آراء بخلاء الجاحظ في الكرم .

أما التعابير الخاصة فتجدها في أكثر المقامات . وخصوصاً المقامات: القردية والأرمنية والخمرية وغيرها . وهناك مقامات مقصرة عن أخواتها ، أو هى على غرار واحد ، حتى يخيل إلى أنه عملها ليتم بها عدداً نوى أن يبلغه ، فإذا قرأت النهيدية والمجاعية رأيتهما توأمتين . . .

بقى علينا أن نقول كلمة أخيرة وهى جواب عن هذا السؤال الذى كثيراً ما يرد : هل المقامة قصة ؟ نعم يا سيدى ، إنها قصة . والفرق بينها وبين قصص اليوم كالفرق بين هندامك أنت وهندام جدّك ، رحمه الله ، ورحمني معه . ولكن ليست كل مقامات البديع قصصاً فقسم منها لاشيء ؛ والقسم الآخر شيء عظيم ، وحسب الرجل ما خلق . إنه لفنان بديع .

ج — ديوانه :

البديع في مقاماته ورسائله أشعر منه في ديوانه[1] . وإن كان قد خلق في المقامة البشرية بطلا أسطورياً جعله شاعراً تاريخياً حقيقياً . لقد تفوق البديع في هذه القصيدة ، وما أحسبه إلا متخيّلا أبا بكر الخوارزمى حين قال منها :

فخرّ مجدّلاً بـدمٍ كأنّى هدمت به بناءً مشمخرّا
وقلت له يعزّ علىّ أنّى قتلتُ مناسبى جلَداً وقهرا

(١) « ديوان البديع » طبعة مصر سنة ١٩٠٣ ، ناشره محمد شكرى المكى .

إن لنثر البديع أثراً بعيداً فى شعره . فهو لا يتخلى عن السجع والازدواج فى هذا الشعر ، كقوله ، مثلا ، فى مدح صاحب الجيش أبى على :

ما السيفُ محتطماً ، والسيلُ مرتكماً ، والبحر ملتطماً ، والليل مقتربا
أمضى شباً منك ، أدهى منك صاعقةً أجدى يميناً ، وأدنى منك مطّلبا
وكادَ يحكيك صوبُ الغيث منسكباً لو كان طلقَ المحيّا يمطر الذهبا
والدهر لولم يخنْ ، والشمس لونطقتْ والليث لو لم يُصَدْ ، والبحر لو عذبا

أما الصناعة وقلّة الأناقة فكثيرة كهذا البيت :

وليل كذكراه ، كمعناه ، كاسمه ، كدين ابن عباد ، كادبار فائقِ

أما الجناس العارم والعبارات النثرية ، فتراها أين توجهت فى ديوانه الصغير ؛ تأمل هذه الأبيات :

وكنتُ إذا ما الليل ماج ظلامهُ جعلت على تيّاره جَسْرتى جسرى
بمشرفة كالطود دائمة السرى كأنَّ على الشعرى بها أوعلى شعرى
وقد عجبتْ شمُّ الهضاب فما درت أباالعيس نسرى ، أم بأجنحةِ النسر
فياربِّ أندى فرعَهُ المجدُ فارعَهُ ولا تُخلِ ذاك الصدرَ من ذلك الصدرِ

هذه بعض أبيات قالها فى مدح الوزير الشيخ أبى نصر بن زيد ، ولاشك فى أنها نفقت عنده فى ذلك الزمان ، أما فى سوق الأدب فلا رواج لها اليوم .

وفى ديوان الشيخ كثير من المعميّات والأحاجى ، وترجمة شعر فارسى . وقد طبخ لنا فى هذا الديوان ما نسميه فى لبنان « مخلوطة » فنظم قصيدة غزلية ممزوجة بالألفاظ الفارسية ، وقد نشرناها فى المختارات الشعرية للتفكهة . وله أيضاً أراجيز وقصائد مصطنعات كلها مبالغات واستعارات وتشبيهات حتى إنى عددت له واحداً وعشرين بيتاً بدأها كلها بكأنَّ ، وهذا يدلنا على الهتافات وعلى التشابيه المرغوب فيها عندهم . ولعل أبرز صفة لهذا العصر هى هذه القوالب البيانيّة والمحسنات اللفظية ، ولو كان فى هؤلاء الممدوحين من يشبه الرشيد ، وسيف الدولة ، وابن العميد ، لما أقدم البديع على قول مثل هذا الشعر فيهم .

رحم الله البديع ، وجلّ من لا عيب فيه وعلا .

٢ ـ الأديب السياسى

تقدم لنا القول إنه يعنينا أمر الناصر لدين الله أبى القاسم محمود بن سبكتكين أكثر من سواه ، لأنه هو الذى سلب ملك خلف بن أحمد ملك كرمان ، وخلف بن أحمد هذا كان يعطى ويجزل العطاء وهو ممدوح بديع الزمان الذى خصه بمقامات ورسائل وقصائد ستقرأ بعضها فى بابها .

أما سبكتكين فامتدحه بقصائد ، ورسائل وجهها إلى وزيره الإسفرائينى . وهذه إحداها ننشرها هنا للدلالة على مشاركة أديبنا البديع فى سياسة عصره . كتب إليه عندما انهزم السامانيون بباب مرو :

وردت رقعة الشيخ الجليل ، أدام الله بسطته منى ، على صدر انتظرها وقلب استشعرها ، وإنى لا أغلط فى قوم أميرهم صبىّ ، ولا فى دولة عميدها خصىّ ، وسنانها حلَقىّ ، ونصيرها شقىّ ، وعدوها قوىّ ، إنى إذا لغوىّ . يا قوم ، بماذا ينصرون ! أبمال عليه اعتمادهم ، أم بجمع هو أمدادهم ، أم بعدل به اعتضادهم ، أم لرأى هو عمادهم ؟ هل هم إلا سطور فى قطور ! إن الله تعالى علم أنهم إن ملكوا لم يُصلحوا ، وأَمرهم ألا يفلحوا ، فسمعوا وأطاعوا . طائفة من المدابير ، وقوفهم بين النار والنير . إن أقاموا فالسيوف الهندوانية ، وأن أيمنوا فالأتراك والخانيّة[1] ، وإن أيسروا فجرجان والجرجانية ، وإن استأخروا فالعطش والبرية . هو الموت إن شاء الله آخذاً بالحلاقيم ، محيطاً بالظاعن منهم والمقيم . جُرجانَ يا مدابيرُ ، جرجانَ ، إن بها أكْلَةً من التين ، وموتةً فى الحين ، نظرة إلى الثمار ، والأخرى إلى التابوت والحفّار ، ونجاراً إذا رأى الخراسانىّ نجر التابوت على قدّه ، وأسلَفَ الحفّار على لحده ، وعطّاراً يعدّ الحنوط برسمه . وبها للغريب ثلاث فتحات للكيس : أولها لكراء البيوت ، والثانية لابتياع القوت ، والثالثة لثمن التابوت ، أغلى اللهَ بهم أسواق النجّارين والحفارين والمُكَارين . آمين يا رب العالمين . » وله أيضاً رسالة وجهها إلى هذا الوزير

(١) نسبة إلى أيلك خان ، وهم جماعة أعانوا على السامانية فى هذه الهزيمة .

يمتدح فيها ابن سبكتكين ، وفيها وصف طريف لفتح بهاضية ، ثم وصف للهند وتعظيم لهذا السلطان الذى فتحها . وسترى ، حين تقرأها فى مكانها ، أن البديع جاء بالبدع فتكسّب بالمقامات والرسائل والقصائد .

٣ ـ الأديب الاجتماعى

شارك بديع الزمان فى وصف أحوال عصره الاجتماعية ، وهذا ما كتبه من رسالة مع الوفد طلباً للنظر لأهل هراة وفيه وصف البؤس الذى ليس فوقه بؤس . قال :

« ولا أزيد الشيخ علماً بهراة وأهلها ، إنه قد شاهد أحوالهم ، وعرف ما عليهم وما لهم ، ولم يغب عن ثاقب فطنته إلا القليل . ولكنى أخبره بما عرض لها ولهم : فيهم فشت الأمراض الحادّة فخبطت عشواء وأفنت رجالاً ، ثم جدّ الغلاء ، وفقد الطعام ، ووقع الموت العام . فمن الناس من لم يُطعم أسبوعاً حتى هلك جوعاً ، ومنهم من تبلّغ بالمَيتة إلى يومنا هذا ، وهو ينتظر نحبه ، ليلحق صحبه . ومنهم من لا يجد القوت على كفّه حتى يموت ، والباقون أحياء كأنهم أموات ترعد فرائصهم من هذه البوائق . وإن هول السلطان أعظم وأطمّ ، وأمر " المطالبات " أكبر وأهم . . . »

وكأن هذه الرسالة لم تثمر فكتب رسالة أخرى إلى الشيخ السيد ابن أحمد جاء فيها بعد التوطئة : « وقد علم الشيخ ما منِيَ به أهل هراة من محن الخانية ، ثم ما أرهقهم من الحقوق الديوانية ، ثم ما زيد عليهم من علاة المصادرة الحادثة ، ثم ما كشف الأستار ، وأظهر العوار ، وقبّح النوّار من غلاء الأسعار ، حقّاً لقد أُكلت الجيفة وهى خائسة ، وطُحنت عظام الميتة وهى يابسة ، وعدِمَ القوت وثمنه موجود ، وتركت العبادات وهُجِرت النياحات ، وأُفردت الجنائز ، وتخطىَ الموتى وهم بالشوارع مطروحون . ولقد دخلت المسجد الجامع يوم أمسَ فرأيت تحت كلّ أسطوانة عليلا ، وكلّمْتُ أحدهم فلم يَعِ إلا قليلا . . . »

إلى أن يقول : « ومن الواجب على السلطان ، أعز الله نصره ، فى مثل

هذا العام ، أن يتعهد الناس بالطعام ، ويتخوّل الرعية بالإنعام، ويبذل فيهم الرغائب ليؤمن الساكن وليتألّف الغائب . والبلاء كل البلاء إن طلب هذا المال الموظّف فتذهب الحاسة الباقية . . . »

هاتان قطعتان من رسالتين تعينان القارئ على مقابلة ذلك البطر بهذا الجوع . وكذلك يفعل فساد الحكم ، وموت ضمير الرعاة فى كل عصر .

إنى أصدق كل ما كتبه البديع فى وصف بؤس أهل بلدته ، فقد رأيت بأمّ عينى هذه المشاهد بل أعظم منها فى ضيعتى ، إبّان الحرب الأولى عام ١٩١٦ .

٤ ـ طابعه الأدبى

جاء البديع والنثر المسجوع والمزدوج ينيخ على الأذهان بكلكله وجرانه . كان لواء مدرسة ابن العميد يرفرف على الدواوين ، والصاحب يزجى الصفوف تحت الدرفس . . . وكان أكبر ما يبغى فتى همذان أن ينضوى تحت هذا اللواء ، فأتيح له من حضرة الصاحب ما أراد ، ثم انصرف عنها تامّ الألواح مكتمل العدّة ، فقصد كاتب عصره ، أبا بكر الخوارزمى فى نيسابور ، فأبدى الشر نواجذه منذ وقعت العين على العين . وأراد البديع المنازلة الأدبية فكانت وفاز ، وانتهت إليه الزعامة الأدبية حين خلت الدنيا من خصمه .

قد يكون البديع غالى فى وصف مناظرته مع أبى بكر ، ولكن الذى لا شك فيه ، هو أن هذا الشاب خاض المعمعة مستعدّاً وولجها أبو بكر مستخفاً. ساعد البديع شبابه ، وحدة ذهنه ، وسلاطة لسانه ، فكان يستولى دائماً على المبادرة ، ويرمى خصمه بقذائف نوادره ونكاته بلا حذر . فما قولك بشاب يقول لشيخ جليل كأبى بكر : « إنك كهل وأنت شاعر، وكنت شاباً وأنت مقامر، وكنت صبياً وأنت مؤاجر ! ! ثم يقول له مزدرياً شعره الذى أنشده فى تلك المناظرة : « فكره أبو بكر ، أيده الله ، أن تكون الهرّة أعقل منه ، لأنها تحدث فتغطّى .» ثم قوله له : « والله لو أن قفاك غدا فى درج ، فى خرج ، فى برج ، لأخذك من النعال ما قدم وما حدث . »

وبعد هذا ماذا ؟ فتح الله على البديع ، فأملى مقاماته الشهيرة فأحلّته فى النثر محل امرئ القيس فى الشعر ، ومشت الذرية على الطريق التى شقّها فى مقاماته ، فكان الحريرى أول من حاول وأفلح ، ففتن الناس ببهلوانياته ومعجزاته ولغوياته ونحوياته . . . ثم أخذ الكتّاب يطبعون على هذا الغرار البديعى الحريرى نحواً من تسعة قرون ، سوّد السجع فيها وجوه الأوراق وغلّ أعناق الأقلام ، وما أزيح هذا الكابوس عن صدر الأدب العربى إلا فى أُخريات القرن التاسع عشر .

فالبديع كما يقول الحريرى فى مقدمة مقاماته : « سبّاق غايات وصاحب آيات » وعندى أنه ليس لأستاذه ابن فارس فى اصطناع المقامة يد ، فشيخنا الهمذانى عبقرى من الطراز الأول ، ولو أنصف الذين قسموا ميراث الأساليب القديمة لما حرموا البديع هذه الإمامة ، بل كان هو رأس هذه الطبقة لا ابن العميد .

قال القدماء : « بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد » ، وأين ابن العميد من نابغتنا هذا ؟! أما تجاوز سلطان الهمذانى الأدبى لسان العرب وتغلغل فى الفارسية والسريانية والعبرانية ، فحاول جميع هؤلاء أن يقلدوه ، ويكتبوا مقامات فى تلك اللغات كما كتب . إن فى إنشاء ابن العميد ترف القصور وأناقتها ، ولكنه يكاد يكون معدوم الحرارة ، فى حين ترى النار المتأججة فى رسائل البديع ، فلم يخمدها كر الدهور والعصور ، فمن يقرأ رسالته إلى ذلك الموظف المعزول ولا يحسب أنها كتبت أمس ؟! ثم من يطالع رسالته فى ذم أبى بكر الحيرى ولا يظن أنها كتبت أول من أمس ؟!

أما خدع البديع تاريخ الأدب العربى تسعة قرون فى قصيدة وصف بها قتال بشر بن عوانة للأسد حتى قال ابن الأثير الذى يدّعى علم كل شىء ، فى نقد قصيدتى البحترى والمتنبى فى قتال الأسد : « ولفطانة أبى الطيب لم يقع فيما وقع فيه البحترى من الانسحاب على ذيل بشر ، لأنه قصّر عنه تقصيراً كثيراً . » وما بشر بن عوانة إلا البديع الذى خلق هذا البطل الأسطورى فبلغ من القصة والقصص ما يعدّ أكبر أُمنيّة يصبو إليها كبار القصصيين العالميين

اليوم . أى أن يخلقوا بطلا خالداً كأبطال شكسبير وموليير .

فالبحترى كما يفهم من نقد ابن الأثير مقصر عن البديع ، وإن كان البديع هو الذى انسحب على ذيل البحترى . . .

نعم إن البديع وابن العميد والصاحب والخوارزمى شعراء انصرفوا إلى النثر بل قل الشعر المنثور ، لأنهم لم يقدروا على مجاراة المتنبى شاعر العصر بل شاعر جميع العصور الأدبية العربية ، ومثل هذا حدث ويحدث عند جميع الأمم ، فأكابر القصصيين هم شعراء قصّروا عن نوابغ الشعراء ، فكانوا فى منثورهم أشعر منهم فى منظومهم ، وهذا ما أصاب كتّاب القرن الرابع قبلهم ، قصروا عن أبى الطيب فراحوا يحلون شعره ويسرقون معانيه وبعض تعابيره الخاصة كما قال صاحبنا البديع لأحدهم فى إحدى رسائله السامّة : « اسكت يا بعض الأنام . . . » أخذه من قول شاعر العرب الأعظم :

وصرتُ أشكّ فيمن أصطفيه لعلمى أنه بعض الأنام

وإذا ابتهر بديع الزمان وادعى فهو على حق ، بل هو سيد الموقف وأمير الكلام فى هذه الحقبة من تاريخ الأدب ، ولم يفتهُ الحريرى فى العبارة التى لا غبار عليها إلا لأنه نحوى لغوى وشاعر أيضاً ، أما الفنّ فى المقامات فبقى وظلّ وسوف يبقى للبديع .

البديع أديب طريف ، قصصى ملهم يريك بعيدات الشخوص كما هى . أما الحريرى فعبارته صلبة منحوتة ، وفى مقاماته جفاف أسلوب العلماء والنحاة . فالعبقرية الفنية البعيدة عن التحكيك والتعمّل إنما تجدها فى رسائل بديع الزمان ومقاماته . إن حلو الكلام ومرّه لهذا الرجل ، وإذا كان الجاحظ أحلّ النثر محل الشعر ، فأهدى « الكتاب » إلى الخلفاء والوزراء ، فها هوذا البديع ينهج نهجه فتحلّ المقامة والرسالة محل القصيدة ويجاز عليهما ويعطى ، وإن كان بينهما مسافات شاسعة . فالجاحظ يتنفس من كير ولا يضيق صدره عن ميدان مهما كان طويل الأمد ، فى حين نرى البديع ضيق المنخرين والصدر قصير النفَس .

ثم أليس سواء لدى الفن ، أأربعمائة مقامة أملى الهمذانى أم خمسين ؟

فالمقامة المضيرية وبضع أخوات لها تغنى عن ألف ، وهى كافية لتحل صاحبها حيث حل . كان البديع واقعياً أكثر منه خيالياً ، وإن توكأ على عصا الاستعارات والتشابيه والكنايات ، وزين كلامه بالمجانسة والتلميحات والإشارات . إنه مادى لا يفلسف ولا يفكر بما وراء الطبيعة ، يتشيع للإثراء والوجاهة الأدبية ، كما يتضح من مناظرته لأبى بكر . رأى السيد أبا الحسين « يضرب عن الخوارزمى بسيفين لأمر كان قد موّه عليه » . فقال البديع : « أيها السيد ، إذا سار غيرى فى التشيع برجلين طرت بجناحين ، فإن كنت أبلغت غير الواجب ، فلا يحملنك على ترك الواجب . ثم إن لى فى آل الرسول صلى الله عليه وسلم ، قصائد قد نظمت حاشيتى البر والبحر . . . وللآخرة قلتها لا للحاضرة إلخ . »

— والبديع يبتكر فى الألفاظ أكثر من ابتكاره فى المعانى ، ويعول على الكلام المستعمل لعلمه أنه أشد تأثيراً فى النفوس . وقلما ذكر آية أو حديثاً أو كلمة مأثورة بحروفها ، بل يكتفى بالإيماء إليها ثم يمضى ، ولذلك يصعب على القارئ العادى أن يدرك كل ما يعنى . وهو ليس ذلك القابض على خناق اللفظة ، فإذا جاءت على هينتها كان ، وإلا فهو يضع محلها غيرها ، وإذا لم يجد عرّب وأخذ من الشارع ولا بأس فى ذلك عنده . ولعل هذا من أثر اللسان الفارسى فيه . فكم من ألفاظ ساسانية نجدها عنده قاعدة مطمئنة لا تشكو فراقاً ولا غربة ، بل كأنها بين قومها وأهليها .

والبديع يدرك أن الجملة الطويلة ضعيفة الوقع ، ولذلك ترى جمله خفيفة وخصوصاً عندما ينبرى للهجاء ، بل قل للسب ، لأن هجاء صاحبنا سب وشتائم .

فهو عندى لم ينفرد فى مقاماته أكثر من تفرده فى رسائله التى بلغ فيها ما لم يبلغه أكابر الشعراء الهجائين العرب . فهو يمجن ويمزح ، ويتهكم ويكشف العورات ليكون له فى كل عرس قرص ، ويرينا أنه ذلك القادر على القول فى كل غرض ومطلب . إنه فى مجونه وهجائه مرّ موجع ، وهو فيهما أقرب إلى بشار منه إلى أبى نواس الخفيف الظل .

ولكن نفس البديع نفس فنان أصيل يعرف كيف يبتدئ وكيف ينتهى ، وله كلمات مسكتة ونهايات طريفة ، كقوله فى مقامته الرصافية : « وفتش الغلام البيت فلم يجد سوى البيت . »

وكقوله لبطله وهو فى ختام المقامة الإبليسية : « يا أبا الفتح ، شحذت على إبليس ! إنك لشحاذ ! »

وكقوله بلسان الحمّامى الذى زجر بطل الهمذانى : « اسكت يا فضولى . »

إن هذا السخط على كل شىء هو الذى أنطق البديع بما نطق ، ولعل أخلاقه السرية أشبه بأخلاق بطله أبى الفتح . كان داهية مثله فى فتح أبواب الرزق ، فالشعراء قبل البديع كانوا يصفون الناقة ليبالغوا فى وصف مشتقات السفر ، ويكبروا مصائبهم فى عين الممدوح ليكبر الجائزة . أما صاحبنا الهمذانى فكبطل مقاماته يدعى أن داهية نزلت به قبل بلوغه « الحضرة » ؛ تارة يزعم أن العرب قطعوا عليه الطريق وشلّحوه ، « وورد نيسابور براحة أنقى من الراحة ، وكيس أخلى من جوف حمار ، وزى أوحش من طلعة المعلم » ؛ وطوراً يتهم بذلك الأتراك كما سترى فى رسائله .

وقد يتساءل القارىء إن كان البديع سيد القلم فلماذا لم يستوزر ؟ ! أما الجواب عن هذا فأظن أن أنانيته وعجرفته ، ولسانه الطويل ، وحرصه بل شحه وتكالبه على المال قد حالت دون بقائه فى القصور . وإنا نحمد الله على هذا ، فلو استقر البديع ورضى لما خرج من رأسه ما خرج من رسائل هجاء تعد آيات من آيات سحر الكلام .

الفصل الرابع

مِنتخبات من آثارِ بديع الزمانِ

١ – الرسائل

ا – من رسائله المدحية

سيوف الحق

كتب إلى الشيخ أبى العباس الفضل بن أحمد الإسفرائينى وزير محمود بن سبكتكين عندما فتح بهاضية فى الهند :

إن الله وهو العلىّ العظيم المعطى ما شاء ، مَنَّ على الإنسان بهذا اللسان ، خلق ابن آدم وأودع فكيه مضغة لحم يصرفها فى القرون الماضية ، ويخبر بها عن الأمم الآتية ، يخبر بها عمّا كان بعد ما خُلِق ، وعمّا يكون قبل أن يُخلق ، ينطق بالتواريخ عمّا وقع من خطب ، وجرى من حرب ، وكان من يابس ورطب ، وينطق بالوحى عمّا سيكون بعد ، وصدق عن الله بالوعد ، ولم ينطق التاريخ بما كان ولا الوحى بما يكون بأن الله تعالى خصّ أحداً من عباده ، ليس النبيّين ، بما خصّ به الأمير السيّد يمين الدولة ، وأمين الملّة ، ودونَ الجاحد إن جحد أخبار الدولة العباسية ، والمدّة المروانية ، والسنين الحربية ، والبيعة الهاشمية ، والأيام الأموية ، والإمارة العدوية ، والخلافة التيمية ، وعهد الرسالة ، وزمان الفترة . ولولا الإطاله لعددنا إلى عاد وثمود بطناً بطناً ، وإلى نوح وآدم قرناً قرناً . ثم لم يجد قائل مقالاً أنّ ملكاً وإن علا أمره ، وعظم قدره ، وكبر سلطانه ،

وهبت ريحه ، طرق الهندَ فأسر طاغيتَها بسطةَ ملكٍ ثم خلّاه ، وعرض الأرض قوة قلب وضبّح سجستان وهى المدينة العذراء ، والخطة العوراء ، والطية الغرّاء ، فأخذ ملكها إخذة عزّ وعنف ، ثم خلّاه تخلية فضل ولطف ، ثم لم يلبث أن خاض البحر إلى بهاضية والسيل والليل جنودها ، والشوك والشجر سلاحها ، والضِّحّ[1] والريح طريقها ، والبر والبحر حصارها ، والجنّ والإنس أنصارها ، فقتل رجالها ، وغنم أموالها ، وساق أقيالها[2] ، وكسر أصنامها ، وهدم أعلامها ، كل ذلك فى فسحة شتوة قبل أن يتطرقها الصيف ، توسّطها السيف ، وهو الله مالك الملك يؤتى الملك من يشاء و ينزعه ممن يشاء .

ثم حكمت علماء الأمّة ، واتفق قول الأئمة أن سيوف الحق أربعة وسائرها للنار ، سيف رسول الله فى المشركين ، وسيف أبى بكر فى المرتدّين ، وسيف علىّ في الباغين ، وسيف القصاص فى المشركين ، وسيوف الأمير ، وفقه الله ، فى مواقفه لا تخرج عن هذه الأقسام ، فسيفه بظاهر هراة فيمن عطّل الحد واتّهم بأنه ارتدّ ، وسيفه بظاهر غزنة سدَّ فى وجه العقوق ، نوعاً من الكفر والفسوق ، وسيفه بظاهر سجستان في من نبّه الحرب بعد رقودها ، وخلع الطاعة بعد قبولها . وسيفه الآن فى ديار الهند سيف قرنت به الفتوح ، وأثنت عليه الملائكة والروح ، وذلّت الأصنام ، وعزّ به الإسلام ، والنبى عليه السلام ، واختصّ بفضله الإمام ، واشترك فى خيره الأنام ، وأُرّخت بذكره الأيام ، وأحفيت بشرحه الأقلام .

وسنذكر من حديث الهند و بلادها ، وغلظ أكبادها ، وشدّة أحقادها ، وقوة اعتقادها ، وصدق جلادها ، وكثرة أجنادها ، نُبَذاً ليعلم السامع أى غزوة غزاها الأمير السيد . إنها بلاد لو لم تُحيها السحاب بِدَرِّها ، لأهلكتها الشمس

---

(١) الشمس .

(٢) الأقيال : جمع قيل وهو الرئيس والملك من ملوك حمير .

بحرّها ، فهى دولة بين الماء والنار ، ونوبة[١] بين الشمس والأمطار ، تقدّمها صعاب الجبال وتحجبها رحاب القفار ، ويعصمها ملتفّ الغياض[٢] ، وتحفّها طواغى الأنهار ، حتى إذا خُرقت هذه الحجب خَلِص إلى عدد الرمل والحصى رجالاً ، وشبه الجبال أفيالاً ، وأنزاع المخاض جلاداً ، ومسناف الجمال طعاناً ، وأركان الجبال ثباتاً ، ثم لا يعرفون غدراً ولا بياتاً ، ولا يخافون موتاً ولا حياة ، ولا يبالون على أى جنبيه وقع الأمر ، وينامون وتحتهم الجمر ، وربما عمد أحدهم لغير ضرورة داعية ، ولا حمية باعثة ، فاتخذ لرأسه من الطين إكليلاً ، ثم قوّر قحفه[٣] فحشاه فتيلاً ، ثم أضرم فى الفتيل ناراً ولم يتأوّه ، والنار تحطمه عضواً فعضواً ، وتأكله جزءاً فجزءاً . فأما محرق نفسه ومغرقها ، وآكل لحمه ، ومفصّل عظمه ، والرامى بها من شاهق ، فأكثر من أن يعدّ ، وأقلهم من يموت حتف أنفه ، فإذا مات هذه الميتة أحدهم سُبَّ بها أعقابه ،وعظم عندهم عقابه .

بلادٌ هذه حالها ، وفيلة تلك أهوالُها ، وجبالٌ فى السماء قِلالها[٤] ، وفلاةٌ يلمع آلهُا ، وغياضٌ ضيّق مجالُها ، وأنهارٌ كثيرة أوحالُها ، وطريقٌ طويل مطالُها ، ثم الهند ورجالُها ، والهندوانية واستعمالها . زحم الأمير السيد ، أدام الله ظلّه ، هذه الأهوال بمنكبه محتسباً نفسه ، معتمداً نصر الله وعونه ، فركض إليهم بعون مِن الله لا يُخذل ، ومددٍ من التوفيق لا يفتر ، وقلبٍ من الأهوال لا يجبن ، وحثٍّ على المطلوب لا يقصر ، وسيفٍ على الضريبة لا ينكل ، فسهل الله له الصعب ، وكشف به الخطب ، ورجع ثانياً من عنانه بالأسارى

---

(١) دولة .

(٢) الغياض : جمع غيضة وهى مجتمع الشجر فى مغيض الماء .

(٣) قور الشيء : قطعه من وسطه خرقاً مستديراً . والقحف : ما انفلق من الجمجمة فانفصل . أو إناء مثل قحف الرأس كأنه نصف قدح .

(٤) القلال : جمع قلة وهى أعلى الجبل .

تنظمهم الأغلال ، والسبايا تنقلهم الجمال ، والفيلة كأنها الجبال ، والأموال ولا الرمال .

فتح ذخرَهُ الله عن الملوك السالفة الخالية ، الكفرة الطاغية ، الجبابرة العاتية ، حتى وسمه بناره ، وجعله بعض آثاره ، والحمد لله معزّ الدين وأهله ، ومذلّ الشِّرك وحزبه ، وصلى الله على محمد وآله .

الأب والابن

وكتب إلى الشيخ الإمام أبي الطيب سهل مادحاً خلف بن أحمد ومؤرخاً ما وقع له مع ابنه حين ثار عليه .

ولمَّا وقع بخراسان ما وقع من حرب ، وجرى ما جرى من خطب ، واضطربت الأمور ، واختلفت السيوف ، والتقت الجموع ، وظفر من ظفر ، وخسر من خسر ، كتبنى الله فى الأعلين مقاماً ، ثم ألهمنى من الامتداد ، عن تلك البلاد ، والإقلاع عن تلك البقاع . واعترضتنا فى الطريق الأتراك ، وأحسن الله الدفاع عن خير الأعلاق [1] وهو الرأس ، بما دون الأعراض وهو اللباس ، فلم نجزع لمرض الحال ، مع سلامة النفوس ، ولم نحزن لذَهاب المال ، مع بقاء الرؤوس . وسرنا حتى وردنا عرصة [2] العدل ، وساحة الفضل ، ومربع الحمد ، ومشرع [3] المجد ، ومطلع الجود ومنزع الأصل ، ومشعر الدين ومفرع الشكر ، ومصرع الفقر ، «حضرة» الملك العادل أبى أحمد خلف بن أحمد ، فكان ما أضعناه ، كأنّا زرعناه ، فأنبت سبع سنابل . وكان ما فقدناه ، كأنّا أقرضناه ، هذا الملك العادل،

(١) الأعلاق : الأشياء النفيسة .

(٢) العرصة : الساحة .

(٣) المشرع : المورد .

وكأنما سمِّى خلفاً ، ليكون عن كل فائت خلفاً ، وعن كل ما مضى عوضاً ، وكأنما جئناه ليضيّق علينا العالم ، ويبغض إلينا بنى آدم ، فيجعل حبسَنا سجستان وقيدنا الإحسان . وكأنما خلق للدنيا تحجيلا[1] ، وللملوك تخجيلا ، وكان هذا العالم قد أحسن عملا ، فجُعِل هذا الملك ثوابه ، وكأنَّ هذا الملك قد أذنب مثلاً فجُعِل هذا العالمُ عقابه . وكأنه جسم والعرَض عفاته[2] ، وكأنّه ذاته ، والمكارم صفاته . فهو البحر يمشى على رجلين ، والمجد يتصور فى العين ، والعدل يتقسّم ، والجود يتجسّم ، والنجم يتكلم . فلما التقينا فرشت الأرض بيدى فرشاً ، ونقشت التراب بفمى نقشاً ، وخطا إلىّ خطوات كادت الأرض لا تسعها ، وكادت الملائكة ترفعها ، ثم إنه زيّف بلقياى وفود الكلام ، كما زيّفت بلقياه ملوك الأنام ، وأفسدنى على الناس ، من جميع الأجناس ، فما أرضى غيره أحداً ، ولا أجد مثله أبداً ، وإن طلبت ملكا فى أخلاقهِ ، مِتُّ ولم أُلاقهِ ، أو كريماً فى جوده ، عدمت قبل وجوده . فحرس الله سلطانه من ملك وسّع أرزاقى ، فضيّق أخلاقى ، وأغلى ثمنى فما يشترينى أحد ، وعظم أمرى فما يسعنى بلد ، وهذا وصف إن أطلته طال ، ونشر الأذيال ، واستغرق القرطاس بل الأنفاس ، واستنفد الأعمار ، بل الأعصار ولم يبلغ المعشار ، وأفنى الأقلام ، بل الكلام ، ولم يبلغ التمام .

ما ظنُّ الشيخ بملك شهدت له الفراسة رضيعاً ، بأن لا يكون وضيعاً ، والمحافل فطيماً ، بأن يكون سمحاً كريما . والشواهد صبيّا ، بأن ينزل مكاناً عليّا . والشمائل غلاماً ، أن يكون ملكا هماماً . فلما أيفع[3] وارتفع ، طالبته

---

(١) التحجيل : بياض فى قوائم الفرس .

(٢) العفاة : جمع عاف وهو الفقير .

(٣) أيفع : بلغ حد الشباب .

الهمة العليا برفض الدنيا ، حتى يؤدّى فرض الله فى الحج ، فقام عن سرير الملك إلى سبيل النسك ، فحجّ البيت ودرس العلم حتى علم ناسخ الكتاب ومنسوخه ، ومباحه ومحظوره ومتن الحديث وصدره .

وكان استخلف على رعيته بعض خدمه وأوصى بهم كبيراً ، لا يظلمهم نقيراً[١] فبسط ذلك العامل يده فى المظالم يحتقبها[٢] ، والمحارم يرتكبها ، فكرّ عليهم كرّة القمر ، ورجع إليهم رجعة المطر ، فجار بَه وقهره ، ومحا الله أثره . ثم حملت له الأعداء العِصىّ ، وحنّت إليه القسىّ ، والله من ورائه ، يكلأه[٣] من أعدائه، فما مرّ يوم من تلك السنين إلا نقصهم وازداد . فكم ركن هُدِم ، وجيش هزم ، وكيد عدم . فلما أقاموا طويلا ، ولم يغنوا فتيلا ، لم يكن أكثر من أن جاؤوه أمراء ، فعادوا فقراء، ولبثوا أُسَراء ، ورجعوا صاغرين ، وانقلبوا خاسرين. وتبعهم كيده النافذ ، ومكره الآخذ ، يقفو آثارهم ، ويكسع أدبارهم ، واشتملت جريدة ما لقى من الحروب ، مع أبناء الذنوب ، وأولاد الدروب ، على بضعة عشر حرباً أخفها مع بضعة عشر ألف رجل ، وكتب الله له فى جميعها النصر ، عادة فى ملك صحب الدهر ، فلم يشرب الخمر ، ولم يسمع الزمر ، ولم يعرف النقر ، ولم يلعب القَمْرَ[٤] . تشحن دور الملوك بالمعازف ، وداره بالمصاحف ، وتأنس مجالسهم بالقِيان ، ومجلسه بالقرآن ، ويألف أبوابهم حملة الظلم ، وبابه حملة العلم . وتعبث أيديهم بالعود ، ويده بالجود ، وتلعب أناملهم بالمزامر ، وأنامله بالدفاتر ، يدّخرون الدراهم ، ويدّخر المكارم ، ويقتنون الجواهر ، ويقتنى المآثر ، ويعدّون نفيس الأعلاق ، ويعدّ نفيس الأخلاق ، وكثيراً ما ينشدنى :

---

(١) النقير : الحفرة الصغيرة فى ظهر النواة .
(٢) احتقب الإثم : جمعه .
(٣) يكلأه : يرعاه .
(٤) القمر : المراهنة واللعب فى القمار .

فهنَّ إذا جمّعتهنَّ دراهمٌ وهنَّ إذا فرّقتهن مكارمُ

ألمَّ بهذه السدّة ، فى هذه المدة فلان فرجع بثلاثين ألف دينار ، وقد نزلت بهذا المقام ، فى هذه الأيام ، فاختلت بين الخيل والخَوَل [١] ، ومجلسى بين الحلى والحلل ، وسيأتيه العم بتفصيل ما أَجملت .

ثم إن لهذا الملك عند الله تعالى دعاءً مستجاباً يصعد بلا حجاب ، واعتبر ذلك فى خَطْب وقع فى هذه السنة فكشفه الله بدعائه ، وردَّ الكيد فى نحر أعدائه . وكان بعض أولاده — كرمهم الله تعالى — يشرب فى السرّ شرب المصرّ ، فبلغه الخبر فقصَّه ، على من اختصّه ، وذهبت النفرة طولا وعرضاً ، وجرَّ الحديث بعضه بعضاً ، وأفضى إلى استمالة قلوب العسكر ، لركوب المنكر ، من إظهار العصيان والعقوق ، برفع المنجنوق [٢] وضرب البوق ، وطابقه على ذلك جملة من الجنود ليسعوا فى الظلم ، فلا يؤخذوا بالجرم ، وينسلوا عن لجام الشرع ، ويأمنوا عليه ألم الرَّدْع ، ودبَّ الشيطان بينهم ودرج ، وأولج هذا الابن وخرج ، وأتبعه الملك العادل بأكثر حجَّابه وزعماء بابه ، ونفرٍ من غلمانه ليردّه إلى مكانه ، فلما بلغوا معسكره صاروا معه يداً واحدة ، وقدماً قاصدة ، وأظهروا شعار الدولة والعصيان على وليهم وولى نعمهم ، ومالك لحمهم ودمهم ، واتصل الخبر فكادت العقول تطير والقلوب تطيش ولم يُؤمَن من الحاضرين أن يكونوا مع الغائبين ، ومن المقيمين أن يكونوا كالذّاهبين . فلما جنَّ الليل أردفهم بجماعة من الأعراب ، وقام إلى المحراب ، يستنجد الله تعالى على ولده ، ويسأله أن يجعله فى يده ، فلما التقت الفئتان أوحى الله تعالى إلى الرُّعب أن يدهشه وإلى الرمل أن يوحشه ، فقهر ذلك الجمع وقسر ، وقصّ جناحه وكسر ، وأفلت الكل وأسر ، ولجأ من أفلت إلى ابن

---

(١) الخول : العبيد والإماء .

(٢) لعله المنجنيق : آلة حربية ترمى بها الحجارة .

سمجور وحارب فى عسكره ، فلما التقى الجمعان بباب هراة وفى عسكره الحاجب النادب ، وزعيم بابه الذاهب ، أوحى الله تعالى إلى فرسيهما فوقفا ، فأسر كل واحد منهما وحده ، وأسر من كان معهما بعده ، فكُبّلوا فى الحديد وردّوا إلى مولاهم ، فلما مثل الحاجب بين يديه قال : كيف رأيت الله يا ظالم نفسه ! ألم أشترك وحيداً ، ألم أربّك وليداً ، ألم أغنك فقيراً . ألم أرفعك حقيراً ، ألم تهرب مستجيراً ، ألم تكن للظالمين نصيراً ، ألم تأتنى أسيراً ، ألست به جديراً ، ألست عليه قديراً . فما أجاب بأفصح من السكوت ، فلما سمع الملك العادل صليل الحديد فى رجليه ، بعد وسواس المنطقة عليه ، رثى لشقوته ، فعفا عن قدرته ، وتلك عادته فيمن خصّه بجرم ، ولا يعفو عن مستوجب حدّا ، ولو عزّ جدّا ، ثم إنه أطلق عن ولده وحبس من كان يسعى فى الدولة بفساد .

وذكر الشيخ أبو فلان أن أبا فلان زاد على خراجه توابع ونوافل وضعف عليه مؤناً ولواحق ، وأمرنى أن أكاتبه ليرفع من الزيادة ما أثبت ، ويحصد من النكاية ما أنبت ، فقلت : اللهم غفراً كيف يحتشمنى ، وهل يوقّر فضلى ، من لا يوقّر أصلى ! وكيف أكاتب سلطاناً لا يعلم أن الدرهم يؤخذ من مالى خبيث الأحدوثة قليل المغوثة . إن رأى الشيخ أن يُعفينى من مكاتبته .

وهلم إلى ملك وجد خراجين لم تزل الملوك من أسلافه يستأدونهما ويسمون الأول أصيلا ويتأوّلون فى الثانى تأويلا ، ويسمّون أحدهما فرضاً ، والآخر قرضا ، فعمد إلى الخراج الأول فتحيّفه[1] ، وإلى الآخر فحذفه . فأما أبو فلان فإن استصوب الشيخ أن يعرض عليه الفصل من كتابى عرض ، ولا يستوحش من خشونة الأقوال ، فهى من خشونة الأفعال من جهته ، فإن جاز لنا أن نقول ،

---

(١) تحيف الشيء : تنقصه وأخذ من جوانبه .

ثم إن استأنف الحسنى عرّفنى لأحسن الخطاب ، وأعرف ما خبث مما طاب ، و يتوب الله على من تاب .

استعطاف

وكتب إلى أبي بكر الخوارزمى :

أنا لقرب الأستاذ ، أطال الله بقاءه كما طرب النشوان مالت به الخمرُ ، ومن الارتياح للقائه ، كما انتفض العصفور بلله القَطرُ ، ومن الامتزاج بولائه ، كما التقت الصهباء والبارد العذْبُ ، ومن الابتهاج بمرآه ، كما اهتزَّ تحت البارح الغُصُنُ الرطْبُ . فكيف نشاط الأستاذ لصديق طوى إليه ما بين قصبتَى العراق وخراسان . بل ما بين عتبتى نيسابور وجرجان ؟ وكيف اهتزازه لضيفٍ في بُردة جَمَّال . وجلدة حَمَّال :

رثُّ الشمائلِ منهج الأثوابِ   بكرت عليه مغيرة الأعرابِ

وهو أيّده الله ولىّ أنعامه بإنفاذ غلامه إلى مستقرّى ، لأفضى إليه بسرّى ، إن شاء الله تعالى .

ب — من رسائل العتاب والاعتذار

زهد واعتذار

وكتب إلى الأمير أبى أحمد خلف بن أحمد معاتباً ومدلا :

كتابى ، أطال الله بقاءك ، وقد كنت نذرت ألّا أخاطب حضرته ، ثم روى لى القاضى حديثاً طرق إلى نقض ما نذرت طريقاً ، وسمعت منشداً ينشد :

لحى اللهُ صعلوكاً مُناهُ وهمُّهُ   من العيشِ أن يلقى لبوساً ومطعما

فقلت أنا معنيٌّ هذا البيت، لأنى قاعدفى البيت ، آكل طيّب الطعام، وألبس لين الثياب ، ويُفاض علىَّ نُزُل[١] ، ولا يُفوَّض إلىَّ شغُل ، ويملأ لى وطب[٢] ، ولا يدفع بى خطب ، وهذا والله عيشُ العجائز ، والزمنُ العاجز ، وكنت أيام مُقام الأمير أرى المسافة بين الرتب قريبة ، وأجدنى أولاً كالثانى وثانياً كالأول ، وأرى الآن ترتيباً جديداً ، وتفاوتاً بعيداً ، وكنت أحسبنى متأخّراً إذا شاءَ تقدّم ، ومتواضعاً لو أراد تعظّم ، ومَسُوداً لو زاحم مَنْ ساد ، لملك الوساد . وأرانى الآن مُحْوجاً إلى التأخر ، مُلْجأ إلى التصغُّر ، ولعل جُرْماً تصوّر ، أو رأياً تغيّر ، أو اعتقاداً أخلف ، أو ظنًّا اختلف ، فإن لم يكن شىء مما سردت وأوردت ، فالغلط فى صدر القصة كان ، وفى عجزها بان ، وإن كان كذا فبالله ما أرضى ، ولو صارت السماء أرضا ، ولا أريد ، ولو انقطع الوريد[٣] . وإنى لأستحيي من الله أن أرى لى المثل الأدنى وفى القوس مِنزَعٌ أنا ، وإن لم أكن بالعراق أمير البصرة، وببخارى زعيم الحضرة، فما زعجنى عنه همذان فقر إلى جوع وعرى، ولا سَاقنى إلى سجستان طمع فى شبع ورى، وإنما نحوم حول المراد:

ولو أنّ ما أسعى لأدنى معيشة ... كفانى ولم أطلبْ قليلٌ من المالِ

لا يكثر الأمير علىّ من خلعه وصِلاته[٤] ، فوالله لو علمت أن قصارى أمرى سجستان أليها[٥] ، وضياعها أقتنيها ، وغلمانها أشتريها ، وأموالها أتسع فيها ، ولا مطمع فى زيادة بعد ، لآثرت الزهد على الطلب . الرأس ، أيّدَ الله الأمير ،

(١) ما يعد للضيف .
(٢) زق .
(٣) الوريد : عرق فى العنق .
(٤) الصلات : جمع صلة وهى العطية .
(٥) أليها : أكون والياً عليها .

كثير الخبوط والضيف كثير التخليط ، وصبٌّ هذا الماء خير من شربه ، وبُعْد هذا الضيف أولى من قربه .

وكأنى بالأمير يقول، إذا قرئت هذه الفصول : الهمذانى رأى بهذه الحضرة من الإنعام ، ما لم يره فى المنام ، فكيف من الأنام ، ولعله أنشأ هذا الكتاب سكران ، فعدل به عادل السكر عن طريق الشكر ، وكأنه نسى مورده ، الذى أشبه مولده ، وإنما رفع لحنه ، حين أشبع بطنه ، واللئيم إذا جاع ابتغى ، وإذا شبع طغى ، والهمذانى لو ترك بجلدته ، يرقص تحت رعدته ، ما تربع فى قعدته ، ولا تجشّأ من معدته . ولكنه حين لبس الحلة ، وركب البغلة ، وملك الخيل والخوَل تمنّى الدول ، ورأس اللئيم يحتمل الوهن ، ولا يحتمل الدهن ، وظهر الشقى يحمل عِدْلَين من الفحم ، ولا يحمل رطلين من الشحم ، ولولا الشعير ما نهقت الحمير ، ولو لم يتسع حاله ، لم يتسع محاله ، وكذا الكلب يزمن حين يسمن ، ولا يتبع حين يشبع ، وعند الجوع يهمّ بالرجوع ، وهذا المقترح [1] من دعاه ! ولو لم يكن عَقِباً ما تدحرج .

ذكرت هذه الكلمات ليعلم الأمير أنى لم أنسها ، ومع تصور هذه الجملة أغار على لحظاته ، وأُواخذ الأمير بحركاته وسكناته ، وأرى أنه سَعد منى بأكثر مما سعدت منه . وآنف أن يقال سماه الهمذانى حيث سما سواه ، ويقاس على هذا ما عداه ، اللهم إلا أن أكون ضيفاً كالأضياف يقيم اليوم ويرحل غداً ، فلا أنافس أحداً . والأمير ، أيده الله ، يأخذ هذا المعنى فيكسره لفظاً ليّن المأخذ ، سهل المقطع ، ويرقّيه إلى سمعه ويجيب عبده فى الحال بما عنده ، والسلام .

---

(١) الطالب بتحكم .

الأدب والذهب

وكتب رقعة إلى مستميح عاوده مراراً :

عافاك الله ، مَثَلُ الإنسان ، فى الإحسان ، مَثَلُ الأشجار ، فى الأثمار ، سبيل من أتى بالحسنة . أن يرفّه إلى السنة ، وأنا كما ذكرت لا أملك عضوين من جسدى ، وهما فؤادى ويدى . أما الفؤاد فيعلق بالوفود ، وأما اليد فتولع بالجود ، ولكن هذا الخلق النفيس ، لا يساعده الكيس ، وهذا الطبع الكريم ، ليس يحتمله الغريم ، ولا قرابة بين الأدب والذهب ، فلما جَمَعَتْ بينهما . والأدب لا يمكن ثَرْدُهُ[1] فى قصعة ، ولاصرفه فى ثمن سلعة ، ولى مع الأدب نادرة .

جهدت فى هذه الأيام بالطبّاخ ، أن يطبخ من جيميّة الشّمّاخ[2] ، لوناً فلم يفعل ، ، وبالقصّاب ، أن يسمع أدب الكتّاب ، فلم يقبل ، واحتيج فى البيت إلى شىء من الزيت فأنشدت شيئاً من شعر الكميت ألفاً ومئتى بيت فلم يُغْنِ . ولو وقعت أُرجوزة العجّاج ، فى توابل السكباج ، ما عدمتها عندى ، ولكن ليست تقع ، فما أصنع ؟ ! فإن كنت تحسب اختلافك إلىّ ، إفضالا علىّ ، فراحتى ، ألّا تطرق ساحتى ، وفرجى ، ألّا تجى ، والسلام .

ملامة

وله يعاتب بعض أصدقائه على التعبيس وعدم البشاشة :

الوحشة ، أطال الله بقاء الشيخ ، تقتدح فى الصدر اقتداح النار فى الزّند ، فإن أُطفئتْ بارت وتلاشت ، وإن عاشت طارت وطاشت ، والقطرُ إذا تدارك على

---

(١) ثرده : أعده ثريداً وهو الخبز المفتوت الملتوت بالمرق .

(٢) الشماخ والكميت والعجاج شعراء مشهورون .

الإناء امتلأ وفاض ، والعثّ إذا ترك فرّخ و باض ، ونحن أُولو هذه الصنعة لا يطردنا سَوطٌ كالجفاء ، ولا يعقلنا شركٌ كالنداء ، ثم على كل حال ، ننظر من عال ، على الكريم نظرَ إدلال ، وعلى اللئيم نظرَ إذلال ، فمن لقينا بأنفٍ طويل ، لقيناه بخرطومِ فيل ، ومن لحظنا بنظرٍ شَزْر ، بعناه بثمنٍ نَزْر ، وعندى أن الشيخ الرئيس لم يغرسنى ليقطعنى فتاه ، ولا اشترانى ليبيعنى سواه .

و يحك ! سلّمت عليه الغداة فردّ جواباً يردّ مثله على الوكلاء، بشطر الإيماء ، واقتصر من البشاشة ، على تحريك الشاشة ، ومن الإقبال ، على تعويج السبال ، وعهدى بذلك الرئيس يخرق إلىّ بساطه عَدْواً، وسماطه حَبْوًا، فهذا الفاضل أجلُّ من والده الفقيه ، أيّده الله ، يوصيه بحسن العشرة معى من بعد ، فللتّيه يوم ، وللجبروت قوم، وما أريد بعد هذا الإعتاب إعتاباً ، ولا عن هذه الرقعة جواباً ، فإنى لا أمكّنه بعدها من أن يستهين ، ولا أُسلِّم عليه حتى يهين ، والحمد لله رب العالمين .

تثقيف وتقويم

وكتب إلى الشيخ أبى عبد الله الحسين بن يحيى (١).

كتابى ، أطال اللهُ بقاءَ الشيخ ، وللشيخ لذّةٌ فى السبّ والعتب ، وطبيعةٌ فى العنف والعسف ، فإذا أعوزه من يغضب عليه ، فأنا بين يديه ، و إذا لم يجد من يصونه فأنا زَبونه ، والولدُ عبدٌ ليست له قيمة ، والظفر به غنيمة ، والوالد مولى أحسن أم أساء ، فليفعل ما شاء ، لا يعدمه الله منى جسداً لا يتألّم بالضرب، وقلباً لا يتظلّم من العتب ، هنيئاً (له) ما استحل من عِرضى وأكل من لحمى ، فما يأكل إلا لحمه ، ولا يضيم إلا بعضه .

---

(١) يبسط فى هذه آراء فى التعلم والتعليم .

وكأنّى به وقد استجدّ إخوانا ولا بأس ، فإن كانت للجديد لذة فللقديم حُرْمة ، والأُخوّة بُرْدَةٌ لا تضيق عن اثنين ، ولو شاء لعاشرنا فى البَيْن . وكان سألنى أن أرود له منزلاً ماؤه روىّ ، ومرعاه غذىّ ، وأ كاتبه لينهض إليه راحلته ، فهاك نيسابور ضالته التى نشدتها ، وقد وجدتها ، وخراسان مُنْيَتُه التى طلبتها ، وقد أصبتها ، وهذه الدولة بغيته التى أردتها ، فقد وردتها ، فإن صدقنى رائداً ، فليأتنى قاصداً ، و إن رضينى مشيراً فليجئنى سريعاً ، وهيهات أن يترك أروند وهضابها ، وترمذ وشعابها ، وماوسا ورياضها ، فيعتاض عنها كرم العهد ، ولو علم أن رياض الأخوة أنضر ، وشعاب المروءة أطيب ، وأنه لا يعدم من نيسابور مثل تلك المتنزّهات ، وخيراً من تلك المتوجّهات ، لحثّ إليها ركابه .

وأما أنا وأخبارى بهذه الناحية ، فمتقلب فى ثوب العافية ، موفر بهذه الحضرة ، مرموق بعين القبول ، هذه جملة حالى ووراءها تفصيل ، منها عليه دليل .

وأما الأخ أبو سعيد ، جعلنى الله فداءه ، ورزقنى لقاءه ، فقد شكرت برّه ، ولولا إشفاقى من ضعف تركيبه ، ولطف ترتيبه ، وعلمى أنه لا يحتمل وعثاء السفر لسألت الشيخ إهداءه إلىّ لأتولى تعليمه وتقويمه ، لكنه رطب العظام ، لطيف الأركان ، لا أخاطر بإنهاضه من ذلك المكان ، حتى يعقد مخّه فى عظامه ، وأثق بقوة ألواحه . و بلغنى أنه ابتدأ مُجمل اللغة فأين بلغ منه ؟ والشيخ لا يحمل عليه بعويص اللغة حتى يعلم سهلها ، ولا يأخذه بما أخذنى به ، فالعمر لا يتسع للعلوم أجمع فلينفق على أحسنها ، و يكفيه من اللغة علم مستحسَنِها ، دون مستهجَنِها ، ومن الإعراب معرفة أصوله ، وما لا غناء به عنه من فروعه ، ثم يأخذ به علوم كتاب الله تعالى حتى يرد على قرة عين لى ولك ، وصلى الله على محمد وآله .

فاقة وخصاصة

وكتب هذه الرسالة اعتذاراً :

كتابى وقد توسّطت الشباب وتطرفت الشيب ، وقبضت من إثر الزمان ، ونظرت فى عقب الأمور ، وطرت مع الملوك ، ووقعت مع الخطوب :

وارفقتُها والجنُّ تنهى وتأمرُ ففارقتُها والموتُ خزيانُ ينظرُ

وعددت من سنىّ خمساً وعشرين ، وما عددت أشهرها ، حتى حلبت أشطرها[١] ، ولا سلمت رسنها[٢] ، حتى استوفيت ثمنها ، وأنا بما منح الله الأستاذ كلَّ يوم من مزيد منتظم الأمور ، موفور السرور ، والحمد لله حق حمده ، والصلاة على رسوله محمد عبده .

وقولُ الأستاذ نعمةٌ لو صادفتْ أرضاً ، وصنيعةٌ لو أصابت موضعاً ، فكأننى به يقول : هذا الكافر للنعمة طوانا حين نشرناه ، وجفانا حين برزناه ، وغاب سنين فلا كتابَ شكرٍ كتب ، ولا قصيدة مدحٍ نظم ، ولا يوماً من أيامى ذكر ، ولا يداً من أيادىّ نشر . وإن فعلت فلأَنى خراسانى ، وأعزّ موجودٍ فى الخراسانية ، الإنسانية . ولو رآنى الأستاذ وأنا فى قميصٍ بأُذنين ، وقَباء[٣] ضيّق الرُّدْنَيْن[٤] ، وعمامة كقبَّة الحجَّاج ، وخفّ فاسد المزاج ، أعلاه جراب ، وأسفله خراب على بِرذَوْن[٥] عبدىّ التقطيع ، يرقص كالرضيع ، لعلم كيف تجرى الفرسان وكيف يمسخ الإنسان .

---

(١) يقال : حلب أشطر الدهر أى جربه وعرف خيره وشره .
(٢) الرسن : المقود .
(٣) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب .
(٤) الردن : أصل الكم أو طرفه الواسع .
(٥) البرذون : دابة الحمل الثقيلة .

وقد علم الله أننى فارقت تلك الحضرة مفارقة أبينا الجنة ، ولكن الحر لا يجنح إلى القيامة ، على الدعامة بالهامة ، إذا وجد وجهاً خصيبا ، ومرعى رطيبا . والله لقد رأيت يدى مجّت أفواه الأمراء والوزراء ، وقد نظرت يمنة ، فلم أر إلا محنة ، وعطفت يسرة ، فلم أر إلا حسرة :

فإن متُّ لم أهلك وفى النفسِ حاجة   وفى العمر إلا قد قضيتُ قضاءها

لا شماتة

جواب إلى من كتب إليه يهنئه بمرض خصمه أبى بكر الخوازمى :

الحرّ ، أطال الله بقاءك ، ولا سيما إذا عرف الدهر معرفتى ، ووصف أحواله صفتى ، إذا نظر علم أن نِعَم الدهر ما دامت معدومة فهى أمانى ، فإن وجدت فهى عوارى ، و إن مِحَنَ الزمان و إن مطلت فستنفد ، و إلّم تُصِبْ فكأن قدْ ، فكيف يشمت بالمحنة من لا يأمنها فى نفسه ، ولا يعدمها فى جنسه ، والشامت إن أفلت فليس يفوت ، و إن لم يمت فسيموت ، وما أقبح الشماتة ، بمن أَمِنَ الإماتة ، فكيف بمن يتوقّعها بعد كل لحظة ، وعقب كل لفظة ، والدهر غرثان[1] طعمه الخيار[2] ، وظمآن شربه الأحرار ، فهل يشمت المرء بأنياب آكله ، أم يُسَرّ العاقل بسلاح قاتله ؟ ! . وهذا الفاضل ، شفاه الله ، و إنْ ظاهر بالعداوة قليلا ، فقد باطنّاه ودًّا جميلا ، والحر عند الحميّة لا يصطاد ، ولكنه عند الكرم ينقاد ، وعند الشدائد تذهب الأحقاد ، فلا تتصور حالى إلا بصورتها من التوجّع لعلّته ، والتحزّن لمرضته ، وقاه الله المكروه ، ووقانى سماع السوء فيه ، بحوله ولطفه .

---

(١) غرثان : جوعان .

(٢) الخيار : جمع خير وهو الكريم .

ج – من رسائل القدح والذم

قاضى السوء

وكتب إلى القاضى أبى القاسم على بن أحمد يشكو أبا بكر الحيرى :

الظلامةُ ، أطال الله بقاء القاضى ، إذا أتت من مجلس القضاء لم ترْقَ إلا إلى سيد القضاة ، وما كنتُ لأقصر سيادته على الحكام ، دون جميع الأنام ، لولا اتّصالهم بسببه ، واتّسامهم بلقبه ، وهم القضاة اتّسموا بسمته ، متطفلين على قسمته . أَلَهم أديمٌ فى الصحة كأُديمه ، أو قديمٌ فى الشرف كقديمه ، أو حديثٌ فى الكرم كطريفه؟ فهنيئاً لهم الأسماء وله المعانى ، ولا زالت لهم الظواهر وله الجواهر ، ولا غَرْوَ إن سمّوا قضاة فما كلٌّ مائعٍ ماء ولا كل سقفٍ سماء ، ولا كلٌّ سيرةٍ عَدْلُ العُمَرين[1] ، ولا كل قاضٍ قاضى الحرمين ، ويالثارات القضاء ! ما أرخص ما بيع ، وأسرع ما أضيع ، وأُلبسته الأنذال قبل خلو الديار وموت الخيار ، ألا يغارون لحلى الحسناء على السوداء ، ومركب أُولى السياسة تحت الساسة ، ومنزل الأنبياء من تصدّر الأغبياء ، وحمى البزاة من صيد البغاث ، ومربع الذكور من تسلط الإناث ، ويا للرجال وأين الرجال ؟

وُلّى القضاء من لا يملكُ من آلاته غير السبال ، ولا يعرف من أدواته غيرَ الاختزال ، ولا يتوجه من أحكامه إلا فى الاستحلال ، ولا يرى التفرقة إلا فى العيال ، ولا يحسن من الفقه غير جمع المال ، ولم يتقن من الفرائض إلا قلة الاحتفال وكثرة الافتعال ، ولم يدرس من أبواب الجدل إلا قبح الفعال وزور المقال . ذاك أبو فلان الفلانى أضاعه الله كما أضاع أمانته ، وخان خزانته ، ولا حاطه من قاضٍ فى صولة جندى وسَبَلة كردى ، فما أشبهه فى قضاياه ، وتحيّره بين خطاياه ،

---

(١) العمران : أبو بكر وعمر .

إلا بالصبيّ يسلّم إلى عديله ، و يلفّ وجهه فى منديله ، ويجتمع عليه أترابه فيحنى قذاله[1] . وكل رفعة بصفعة ، و يسأل عن ضاربها ، فإن غلط فى صاحبها ، أعيد على وجهه اللفّ ، وعلى قذاله الكفّ ، وكذا من شغل أيام صباه بما شغل ، وفعل أيام الشباب ما فعل ، ثم جلس للقضاء كهلا ، ووسع كل شيء جهلا .

و بعدُ ، فإن القضاء من القضيّة ، والحيّة لا تلد غير الحية ، فمن اعتزى إلى أبٍ كأبيه ، واقترن بأخٍ كأخيه ، لم يُلَمْ على جهله ، فهو الشيء من أهله ، والفرع فى أصله . والعلم ، أطال الله بقاء القاضى ، شيء كما تعرفه بعيد المرام ، لا يصاد بالسهام ، ولا يقسم بالأزلام ، ولا يرى فى المنام ، ولا يضبط باللجام ، ولا يورث عن الأعمام ، ولا يكتب للئام . وزرع لا يزكو فى كل أرضٍ حتى يصادف من الحرص ثرى طيّباً ، ومن التوفيق مطراً صَيّباً ، ومن الطبع جوّاً صافياً ، ومن الجهد روحاً دائماً ومن الصبر سقياً نافعاً ، والعلم علق لا يُباع ممن زاد، وصيد لا يألف الأوغاد ، وشيء لا يدرك إلا بنزع الروح ، وغرض لا يصاب إلا بافتراش المدر ، واستناد الحجر ، ورد الضجر ، وركوب الخطر ، و إدمان السهر ، واصطحاب السفر ، وكثرة النظر ، و إعمال الفكر ، ثم هو معتاصٌ على من زكا زرعه ، وخلا ذرعه ، وكرم أصله وفرعه ، ووعى بصره وسمعه ، وصفا ذهنه وطبعه ، فكيف يناله من أنفق صباه على الفحشاء ، وشغل سلوته بالغنى وخلوته بالغناء ، وأفرغ جِدّه على الكيس ، وهزله على الكأس . والعلم ثمر لا يصلح إلا للغرس ، ولا يغرس إلا فى النفس ، وصيد لا يقع إلا فى البذر ، ثم لا ينشب إِلا فى الصدر ، وطائر لا يخدعه إلا قفص اللفظ ، ثم لا يعقله إلا شَرَكَ الحفظ ، و بحر لا يخوضه الملاّح ، ولا تطيقه الألواح ، ولا تهيجه الرياح ، وجبل لا يتسنّم

(١) القذال : ما بين الأذنين من مؤخر الرأس .

إلا بخطا الفكر ، وسماء لا يصعد إلا بمعراج الفهم ، ونجم لا يلمس إلا بيد المجد .

أيكفى أن يصبح المرء بين الزقّ والعود ، ويمسى موجبات الحدود ، حتى يتمّ شبابه ، وتشيب أترابه ، ثم يلبس دَنّيته ، ليخلعَ دينيته ، ويسوّى طيلسانه ليحرّف يده ولسانه ، ويقصّر سَباله ليطيل حباله ، ويبدى شقاشقه ليغطّى مخارقه ، ويبيّض لحيته ليسوّد صحيفته ، ويظهر ورعه ، ليخفى طمعه ، ويغشى محرابه ، ليملأ جرابه ، ويكثر دعاءه ، ليحشو وعاءه ، ويرجو أن يخرج من بين هذه الأحوال عالمًا ، ويقعد حاكما ، هذا إذا المجد كالوه بقفزان . كلاّ حتى ينسى الشهوات ، ويجوب الفلوات ويعتضد المحابر ، ويحتضن الدفاتر ، وينتج الخواطر ، ويحالف الأسفار ، ويعتاد القفار ، ويصل الليلة باليوم ، ويعتاض السهر من النوم ، ويحمل على الروح ويجنى على العين ، وينفق من العيش ، ويخزن فى القلب ، ولا يستريح من النظر إلا إلى التحديق ، ولا من التحقيق إلا إلى التعليق . وحامل هذه الكلف إن أخطأه رائد التوفيق ، فقد ضلّ سواء الطريق ، وهذا الحيرى رجلٌ سفلَة طلب الرئاسة بغير تحصيل آلاتها ، وأعجله حصول الأمنية عن تمحّل أدواتها :

والكلب أحسن حالةً وهو النهاية فى الخساسهْ
ممن تصدّر للريـــا سة قبل إبّان الرياسهْ

فولى المظالم وهو لا يعلم أسرارها ، وحمل الأمانة وهو لا يعرف مقدارها ، والأمانةُ عند الفاسق ، خفيفةُ المحمل على العاتق ، تشفق منها الجبال ، ويحملها الجهال ، وقعد مقعد رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، بين كتاب الله يتلى ، وحديث رسوله يروى ، وبين البيّنة والدعوى ، فقبّحَه الله من حاكم لا شاهد أعدلُ عنده من السلّة والجام ، يدلى بهما إلى الحكام ، ولا مزكّى أصدقُ لديه من

الصُّفْر ، ترقص على الظفر ، ولا وثيقة أَحبّ إليه من غمزات الخصوم ، على الـكيس المختوم ، ولا وكيل أوقع بوفاقه من خبيئة الذيل ، وحمّال الليل ، ولا كفيل أعزُّ عليه من المنديل والطبق ، فى وقتى الغسق والفلق ، ولا حكومة أبغضُ إليه من حكومة المجلس ، ولا خصومة أوحش لديه من خصومة المفلس ، ثم الويل للفقير إذا ظُلِم فما يغنيه موقف الحكم ، إلا بالقتل من الظلم ، ولا يجيره مجلس القضاء ، إلا بالنار من الرمضاء .

وأُقسم لو أن اليتيمَ وقع فى أنياب الأُسود ، بل الحيّات السود ، لكانت سلامته منهما أحسنَ من سلامته إذا وقع بين غَيابات هذا القاضى وأقاربه . وما ظنُّ القاضى بقوم يحملون الأمانة على متونهم ، ويأكلون النار فى بطونهم ، حتى تغلظ قصراتهم[1] من مال اليتامى ، وتسمن أكفالهم من مال الأيامى ، وما ظنك بدارٍ عمارتها خراب الدور ، وعُطلة القدور ، وخلاء البيوت ، من الـكسوة والقوت ، وما قولك فى رجلٍ يعادى الله فى الفلس ، ويبيع الدين بالثمن البخس ، وفى حاكم يبرز فى ظاهر أهل السمت ، وباطن أصحاب السبت ، فعله الظلم البحت ، وأكله الحرام السُّحْت[2] ، وما رأيك فى سوسٍ لا يقع إلا فى صوف الأيتام ، وجرادٍ لا يسقط إلا على الزرع الحرام ، ولص لا ينقب إلا خزانة الأوقاف ، وكردى لا يغير إلا على الضعاف ، وذئب لا يفترس عباد الله إلا بين الركوع والسجود ، ومحارب لا ينهب مال الله إلا بين العهود والشهود ؟!

وما زلت أُبغض حال القضاة طبعاً وجبلَّة ، حتى أبغضتهم ديناً وملّة ، وألعنهم دربةً ، حتى لعنتهم قُربة ، بما شاهدت من هذا الحيرىّ وقاسيت ، وعانيت من خبطه وخطبه ما عانيت ، وسأسوق حديثى معه :

---

(١) رقابهم .　　(٢) الحرام ومال الظلم

إنه أصلحه الله قد فتّش أعطاف نيسابور فما وجد إلا رأسى دبَّة [١] وإلا لحيتى مذبَّة [٢]، فجنى لى على خمسة آلاف درهم أرقت فى كسبها ماء العمر، وأخرجتها من أنياب الخطوب الحمر، وخمسة أشهر من عمرى كل يوم منها خير من عمر شريح القاضى فى أمر الباغ [٣] المعروف بباغ أسد . عقد لى إجاره ثلاث سنين واحتملت دخله أياماً قلائل، ثم لم يكن مثلى معه إلا مثل البخارى الذى ضاع حماره وخرج فى طلبه، حتى عبر جيحون بسببه، يطلبه فى كل منهلة، وينشده فى كلّ مرحلة، وهو لا يجده، حتى جاوز خراسان، وانتهى إلى طبرستان، وأتى العراق، وطاف الأسواق، فلما لم يجده، وأيس عاد وقد طالت أسفاره، ولم يحصل حماره، حتى إذا حصل فى بلده، بين أهله وولده، أحبّ الله أن يلطف له لطفاً ليعتبر به، فنظر ذات يوم إلى إصطبله فإذا الحمار بسرجه ولجامه، وثفره [٤] وحزامه، قائماً على المعلف ينش .

وأنا أيضاً ما زال يردّدنى فى هذا الباغى بأمل يرخيه ويشدّه، وطمع يرسله ويمدّه، حتى صار الباغ بأرضه ومائه، وَزرعه وبنائه، فى يد الهمذانى . أليس، أطال الله بقاء القاضى، يعامل مثلى بمثلها إلا سخىّ أو سخيف، أما السخىّ فالذى لا يبالى بما يؤول إليه عقباه، ولا يوجعه الصفع على قفاه، والله المستعان والقاضى الفاضل المستجار، ولعن الله الحيرى ووقتاً قطعته بذكره، وقرطاساً دنّسته باسمه، والحمد لله .

---

(١) طريقة .
(٢) ما يطرد به الذباب .
(٣) البستان .
(٤) سير فى مؤخر السرج يوضع تحت ذنب الدابة .

جفوة ونفار

وكتب إليه رجل عزل عن ولاية حسنة يستمد وداده فأجابه بهذه الرسالة التي عارضها الكثيرون :

وَردت رقعتك ، أطال الله بقاءك ، فأعرتُها طرفَ التعزّز ، ومددت إليها يد التقزّز ، وجمعت عنها ذيل التحرّز [١] ، فلم تندَ على كبدى ، ولم تحظ بناظرى و يدى ، وخطبتَ من مودّتى ما لم أجدك لها كفؤًا ، وطلبت من عشرتى مالم أرك لها رضا . وقلتُ : هذا الذى رفع عنا أجفان طرفه ، وشال بشعرات أنفه ، وتاه بحسن قدّه ، وزها بورد خدّه ، ولم يسقنا من نوئه [٢] ، ولم نسر بضوئه ، والآن إذ نسخ الدهر آية حسنه ، وأقام مائدة غصنه ، وفثأ [٣] غرب عُجْبه ، وكفّ زهو زهره ، وانتصر لنا منه بشعرات كسفت هلاله [٤] ، وأكسفت باله ، ومسخت جماله ، وغيّرت حاله ، وكدّرت شرعته [٥] ، جاء يستقى من جُرْفنا جَرْفاً ، و يغرف من طيبنا غرفاً ، فمهلا يا أبا الفضل مهلا :

أرغبتَ فينا إذ علا ... كَ الشعرُ فى خدٍّ قَحِلْ [٦]

وخرجتَ عن حدّ الظِّبا ... ء وصرت فى حدّ الإبِلْ

الآن تطلب عشرتى ... عُدْ للعداوةِ يا خَجِلْ

وتناسيت أيامك إذ تكلّمنا نَزْراً ، وتلحظنا شَزْراً ، وتجالس من حضر ، ونسترق إليك النظر ، ونهتز لكلامك ، ونهشّ لسلامك :

---

(١) أى الاحتراز منها .

(٢) المطر .

(٣) فثأ القدر سكن غليها .

(٤) أى أنه التحى فذهب جماله .

(٥) محل الماء .

(٦) جلد على عظم .

ومن لكَ بالعينِ التى كان مدةً　　إليك بها فى سالفِ الدهر ينظرُ

أيامَ كنت تمايل ، والأعضاء تتزايل ، وتتغانج ، والأجساد تتفالج ، وتتلفّت ، والأكباد تتفتت ، وتخطر وترفُل ، والوجدُ يعلو بنا ويسفُل ، وتُدبر ، وتُقبل ، فتَمْنى وتخبُل ، وتصدّ وتُعرض ، فتُضنى وتُمرض :

وتبسمُ عن ألْمَى كأنَّ منوّرا　　تخلّل حرَّ الرمل غَضّ لهُ ندى

فاقصر الآن فإنه سوق كسد ، ومتاع فسد ، ودولة عرضت ، وأيام انقضت :

وعهـــد نفاق مضى　　وخطب كسادٍ نزلْ

وخدٌّ كأنْ لم يكنْ　　وخطٌّ كأن لم يَزَلْ

يوم صار أمس ، وحسرة بقيت فى النفس ، وثغرٌ غاض ماؤه فلا يرشف ، وريقٌ خدع فلا ينشف ، وتمايل لا يُعجب ، وتثنٍّ لا يطرب ، ومقلة لا تجرح ألحاظها ، وشفة لاتفتن ألفاظها ، فحتّام تدلّ وإلامَ ، ولِمَ نحتمل ، وعلامَ ، وآن أن تذعن الآن . وقد بلغنى الوقتَ ما أنت متعاطيه من تمويه يجوز بعد العشاء فى الغسق ، وتشبيه يفتضح عند ذوى البصر ، وإفنائك لتلك الشعرات حفًّا وحصًّا[1] ، وإسْباغك لها نَتفًا وقصًّا ، وسيكفينا الدهر مؤونة الإنكار عليك بما يزف إليك ، من بنات الشعر وأمهاته .

فأما ما استأذنتَ رأيى فيه من الاختلاف إلى مجلسى فما أقلَّ نشاطى لك وأضيق بساطى عنك ، وأشبع قلبى منك ، وأشدّ استغنائى عن حضورك ، فإن حضرت فأنت كغاشّ نروض عليه الحلم ، ونتعلم به الصبر ، ونتكلف فيه الاحتمال ونغضى منه الجفن على قذى ، ونطوى منه الصدر على أذى ، ونجعله للعيون تأديباً وللقلوب تأنيباً .

---

(١) حاق الشعر .

ما لك يا أبا الفضل ، تعتاض من الرغبة عنا رغبة فينا ! ومن ذلك التدلل علينا تذلّلاً لنا ! ومن ذلك التعالى تبصصاً ، ومن ذلك الغالى ترخصاً ! وما بال الدهر أبدلك من التزايد تنقّصاً ، ومن التسحب على الإخوان تقمُّصًا . ولئن اعتضت عن ذلك الذهاب رجوعاً ، لقد اعتضتا عن هذا النزاع نزوعاً ، فانا برحلك وجانبك ، ملقى حبلك على غاربك ، لا أُوثر قربك ، ولا أنده[1] سربك ، ولو أحببت أن أُوجعك لقلت :

ما يفعل الله باليهودِ ولا بعـــادٍ ولا ثمودِ
ولا بفرعون إذ عصاهُ ما يفعلُ الشعرُ بالخدودِ

د ـ من رسائل السب والشتم

شكوى وسعاية

كتب إلى الشيخ الفاضل ابن أحمد الإسفرائينى وهو أول من استوزر محمود بن سبكتكين فاتح السند والهند .

كتابى والثمرة ، أدام الله عز الشـيخ الجليل ، تخرج من أكمامها ، فتكون مرَّةً قبل تمامها ، ثم تصير مزّةً كثيراً من أيامها ، ثم تكون فجّة عفصة[2] ، ثم لايزال الليلُ والنهارُ ينضجانها حتى تصبح رطباً جنيًّا ، وتؤكل حلواً هنيًّا ، وقد تصورنى الشيخ الجليل حجراً لا يؤثّر فى الماء والنار ، ولا ينضجنى الليل والنهار ، وللشباب نزقة طيش ثم يربعون ، إذا جاء الأربعون ، وينزعون ، وإن كانوا لا يوزعون .

---

(١) نده : صاح زاجراً .
(٢) مرة تسبب القبض .

ولقد نظرت فى المرآة فوجدت الشيبَ يتلهّب وينهب ، والشبابَ يتأهّب ويذهب ، وما أُسرج هذا الأشهب إلا لسير ، وأسأل الله خاتمة خير ، وأنا أرجو أن يكون ما نسبنى إليه ولىّ النعمة ، أدام الله علوه ، من الظلم والعدوان مطايبة ومزاحاً ، فإن كان اعتقاداً فلأمىّ الويل ، وسال بى السيل . فأما الخراج وتوابعه فوالله ما أحوج عاملاً إلى اقتضائه ، إنما الحديث فى جزافٍ يطلب ، ومحالٍ يكتب . فأما حقوق الديوان أصلا وفرعاً فلا يدّعى العمّال علىّ باقياً إلا غرمت للدرهم ديناراً . أمجنون أنا ! وأما الشركاء فهم يفدوننى بالأمهات والآباء . وقد سمع الشيخ الجليل كلامهم والذكرى تنفع المؤمنين .

ومما أُطرف به المجلس العالى ، زاده الله شرفاً ، أنه كان فى جيرتنا رجل يكنى أبا الهول ، كنا نسميه أسطوانة المسجد لكثرة صلاته ، وكان له عمّ موسر لا عقب له ، فرزق ولداً على كبر السن . فحمل أبا الهول فرط غمّه ، أن زوى الله عنه ميراث عمِّه . على ترك الصلاة أصلا ، فكان لا يؤدّى فرضاً ولا نفلا ، ولا يردّ سلاماً ، ولا يعمل فى الخير عملا ...

وقد وجدت لأبى الهول عِدْلا[1] ، وهو أبو فلان . كان فيما مضى يعتق فى كل شهر عبداً ، ويصلى بالليل ورداً ، ويتّخذ مصانعَ ورباطاً ، فرجع من الحضرة ، وقد سلخه الله من كل خير ، وضربه فى قالَب عَير ، فهو الآن لا يشهد جامعاً ولا جمعة ، ولا يصلِّى فى الظاهر ركعة ، ولا يعطى فقيراً حبَّة ، ولا يرزق طفل منه محبة . وقد اتخذ نقباء وأعواناً ، وارتبط رجالة وفرساناً . وقد ملأ الرستاق والبلد أجعالاً[2] . وما سُجِن أحد قبلى على سعاية ، ولولا أمرٌ خصّنى لرأيت حقًّا لله أن أنهض إلى المجلس العالى لتصوير حاله ، وقد طويت هذا الكتاب على ما عاملنى

---

(١) مماثل .

(٢) خرائب .

به ، و إذا كانت هذه حالى ، وأنا أمشى بالنهار على الماء ، وأعرج بالليل إلى السماء ، علم الشيخ الجليل حال العامة . و إذا أنعم بالنظر فى الرقعة التى طويت كتابى هذا عليها ، وفى جواب القاضى فى آخرها وعلى ظهرها ، علم صدق ما يقوله العبد .

وللشيخ الجليل فى تأهيل العبد للجواب وزجر هذا الطويل عما يتعاطاه رأيُهُ العالى إن شاء الله .

الوجه اللحيم

وكتب إليه أيضاً فى شأن أبى البخترى :

جزى الله الشيخَ الجليل ، السيّدَ النبيل ، أفضلَ ما جازى مولىً عن عبده ، وأضعف الله له من عنده ، ومن قال جزاك الله خيراً فقد أولى جميلا ، وأعطى جزيلا ، وما قصّر من اتخذ الله وكيلا . وما بى ، أدام الله تمكين الشيخ الجليل ، مالٌ حصل ، أو حقٌّ وصل . إنى لا أعدم فى كنفه المال ، وأبلغ دولته الآمال . ولكن أبو البخترى حمانى لذيذ النوم ، ومنعنى بياض اليوم . أنّى يكون مثلى وأنا سحتب[1] ضرب ، يعبث به صفعان كأنه درب ، و كنت أسمع بطرار[2] كأنه النبل ، ولم أسمع بمختال كأنه الطبل ، ويقولون لص كالحية فى الظلم ، وطرار كالزَّلم[3] ، فأما طرار كالسَّلَم[4] ، ولصٌّ فى طول المنارة ، وعَرض الغرارة ، فلا إلا هذا الحر ، وعنوان الأحمق كنيته ، ثم بنيته ، ثم حليته ، ثم مَشيته ، ووالله ما أعرف معنى أبى البخترى ، فهلا أبو حامد ، وأبو خالد ، و إن امرأةً تقعد مدّةً تعصر بطنها

---

(١) جرىء .

(٢) لص يشق الثوب لسلب ما فيه .

(٣) السهم .

(٤) شجرة كبيرة .

وظهرها ، وتعدُّ يومها وشهرها ، ثم تسمّيه أبا البخترى لرعناء لا تستحق مهرها ، وخليقةٌ أن تطمَّ نهرها ، فلا تلد دهرها . ثم الوجه اللحيم ، لا يحمله كريم ، والأنف السمين، لا ينقله الأمين ، والقطف سير الحمير ، والهرولة مشية الخنازير .

مجمع الرذائل

وكتب إلى عمار بن الحسين :

ما أجد لعمّار مثلًا إلا الغراب ، لا يقع إلا مذموماً على أى جنب وقع ، إن نعب فروعة النذير ، و إن حجَلَ فمشية الأسير ، وإن شحج فصوت الحمير ، و إن أكل فدبر البعير ، و إن سرق فبلغة الفقير . كذلك عمّار إن حُذِفتْ عينه فالحَيْن [1] ، و إن حذفت ميمه فالشَّيْن ، و إن حذفت راؤه فالزَّيْن ، و إن صحّف خطه فالمَيْن [2] ، وإن لاصقته فالمعاذير الكاذبة ، و إن استقصيته فالوجه العبوس ، و إن صدقته فالظفر اللئيم ، و إن كذبته فالعقاب الإليم ، و إن زرته فالحجاب الثقيل ، و إن لم تزره فالعتاب الطويل .

تعريض

وكتب فى نقض قصيدة أبى بكر الخوارزمى :

سألت ، أمتع الله بك عن الخوارزمى وشعره ، وقلت إنى لأجد فيه بيتاً لو رؤى فى المنام لأوجب الغسل حسّا ، و بعده بيتاً إذا سرد ينقض الطهارة مسًّا ، ولعمرى إن هذين البيتين لو كانا تينتين ما نبتتا فى أرض ، أو تمرتين ما جنيتا من

---

(١) الحين : الهلاك .

(٢) المين : الكذب .

غصن . فكذلك إذا كانا شعرين يبعد أن يصدرا عن صدر ، أو يطبعا من طبع ، أو يصبَّا على قالَب قلب ، أو يكونا نفَسَى نفْس، فقد يسمن الشاعر ثم يغثّ ، ويجيد القائل ثم يرثّ ، ولكن لا كما تراه فى شعر أبى بكر . وما كنت لأ كشف تلك الأسرار ، وأهتك هذه الأستار ، وأظهر منه العار والعوار ، لولا ما بلغنا عنه من اعتراض علينا فى ما أمليناه ، وتجهيز قدحٍ علينا فى ما روينا ، من مقامات الإسكندرى، من قوله إنّا لا نحسن سواها ، وإنّا نقف عند منتهاها . ولو أنصف هذا الفاضل لراض طبعه على خمس مقامات ، أو عشر مفتريات . ثم عرضها على الأسماع والضمائر ، وأهداها إلى الأبصار والبصائر ، فإن كانت تقبلها ولا تزجّها ، أو تأخذها ولا تمجّها ، كان يعترض علينا بالقدح ، وعلى إملائنا بالجرح ، أو يقصر سعيه ويتداركه وهنه ، فيعلم أن من أملى من مقامات الكدية أربعمئة مقامة لا مناسبة بين المقامتين لا لفظاً ولا معنى ، وهو لا يقدر منها على عشر ، حقيق بكشف عيوبه . والسلام .

ساكن الإصطبل

وكتب إليه أيضاً :

قد بعث إلىّ الشيخ ، أطال الله بقاءه ، بأصلٍ مال مجونه ، وأُصان إن شاء الله عن فروعه ، فأما القسمة الواقعة لفلان فلو كان حمارى لنفشت على بطنه التِّبن ، ونقلت على ظهره اللبْن . أفأؤدّى عنه الغرامة ، لا ولا كرامة ، أنا والله لا أُربط فى الإصطبل ، مثل ذلك الطبل ، إنى لَأنفس بالعذار ، على ذلك الحمار. مَنْ ذلك الثور ، حتى يحتمل منه الجور ! الموت ولا هذا الصوت ، والمنيّة ، ولا هذه الدنيّة ، والسلام .

هـ — من الرسائل الأهلية :

إغراء

كتب إلى أبيه يستقدمه إلى هراة :

كتابى ، أطال الله بقاء سيّدنا ، من بوشنج ، أُسوة بيعقوب فى ولده ، إذ ظعن إليه من بلده ، وليس العائق سور الأعراف [١] ، ولا رمل الأحقاف ، ولا جبل قاف [٢] ، فلِمَ لا ينشط ، والله لا يضيع بذلك المكان درهماً إلا عوّضته ديناراً ، ولا يعدم هناك داراً ، إلا أفدته دياراً . أخاف والله أن أموت وفى النفس حاجة لم أقضِها ، ومُنْيَةٌ لم أحظَ ببعضها . لا يفعل سيدنا الشيخ ، والضنُّ بالولد أولى من الضنّ بالبلد وقد رسمت لموصل كتابى هذا أن ينقده مئة دينار بشرط أن يخرج ، وأن يرتّب له عمارة شتوية تسعه والشيخ الفاضل العمّ فليتفضلا ، وليقوما ويرحلا . ويستصحب الأخ أبا سعيد ، وليأتنى بأهله أجمعين ، فما يعجبنى لقاء ليس له بقاء ، ولا وصل بعده فراق . فإن لم يكن استصحاب القوم فلا يتأخر بنفسه ، فسيرد على خمسمائة نيران ، وألف أكّار ، وأحوالٍ منتظمة وأسباب مستقيمة .

غيرى خالك

وكتب إلى ابن أخته :

أنتَ ولدى ما دمتَ والعلمُ شأنك ، والمدرسةُ مكانُك ، المحبرة حليفك ، والدفتر أليفُك ، فإن قصّرت ولا إخالك ، فغيرى خالُك ، والسلام .

---

(١) سور بين الجنة والنار .

(٢) جبل يقال إنه محيط بالأرض .

فضيلة القصد

وكتب أيضاً إلى وارث مال :

وصلت رقعتُك يا سيّدى ، والمصاب لعمرُ اللهِ كبير ، وأنت بالجَزَع جدير ، ولكنك بالصبر أجدر ، والعزاء عن الأعزّة رُشْد كأنه الغىّ ، وقد مات الميت فليحىَ الحىّ ، فاشدد على مالك بالخَمْس [1] ، فأنت اليومَ غيرُك بالأمس .

قد كان ذلك الشيخ ، رحمه الله ، وكيلَك ، تضحك ويبكى لَك ، وقد موّلك بما ألّف بين سُراه [2] وسيره ، وخلفك فقيراً إلى الله غنيًّا عن غيره . وسيعجم الشيطان عودك [3] فإن استلانه رماك بقوم يقولون: خير المال ما أُتلف بين الشراب والشباب ، وأنفق بين الحباب [4] والأحباب ، والعيش بين الأقداح والقِداح [5] ، ولولا الاستعمال لما أُريد المال . فإن أطعتهم فاليوم فى الشراب ، وغداً فى الخراب ، واليوم واطرَبا للكاس ، وغداً واحرَبا من الإفلاس .

يا مولاى ، ذلك الخارج من العود يسميه العاقل فقراً ، والجاهل نقراً ، وذلك المسموع من الناى هو اليوم فى الآذان زمر ، وغداً فى الأبواب سمر [6] والعمر مع هذه الآلات ساعة ، والقنطار فى هذا العمل بضاعة ، وإن لم يجد الشيطان مغمزاً فى عودك من هذا الوجه رماك بآخرين يمثلون الفقر حذاء عينك ، فتجاهد قلبك وتحاسب بطنك ، وتناقش عينك ، وتمنع نفسك، وتبوء فى دنياك بوزرك ، وتراه

(١) يقصد الأصابع الخمس .
(٢) السرى : السير ليلا .
(٣) يعجم العود : امتحنه .
(٤) الفقاقيع التى تطفو عند مزج الخمرة .
(٥) قداح الميسر .
(٦) شده بالمسمار .

فى الآخرة فى ميزان غيرك .لا. ولكن قصداً بين الطريقين، وميلاً عن الفريقين، لا منع ولا إسراف . والبخل فقر حاضر وضير عاجل، وإنما يبخل المرء خيفة ما هو فيه، فليكن لله فى مالك قسط، وللمروءة قسم، فصِلِ الرَّحِمَ ما استطعت، وقدر إذا قطعت . فلأن تكون فى جانب التقدير، خيرٌ لك من أن تكون فى جانب التبذير .

٢ ـ المقامات

ا ـ من المقامات الأدبية

المقامة القريضية

حدثنا عيسى بن هشام قال : طرحتنى النوى مطارحها حتى إذا وطئت جرجان الأقصى، فاستظهرت على الأيام بضياعٍ أجلتُ فيها يد العمارة، وأموالٍ وقفتها على التجارة، وحانوتٍ جعلته مثابة[١]، ورُفقةٍ اتخذتها صحابة، وجعلت للدار، حاشيتى النهار، وللحانوت ما بينهما، فجلسنا يوماً نتذاكر القريض وأهله، وتلقاءَنا شابٌّ قد جلس غير بعيد يُنصت وكأنه يفهم، ويسكت وكأنه لا يعلم، حتى إذا مال الكلام بنا مَيْلَه، وجرَّ الجدال فينا ذَيْلَه، قال : قد أصبتم عُذَيقه، ووافيتم جُذَيلَه[٢]، ولو شئت للفظت وأفضت، ولو قلت لأصدرت وأوردت، ولجلوت الحق فى معرض بيان يسمع الصمّ، وينزل العُصم[٣] .

---

(١) مرجع .

(٢) أخذها من قول من قال : أنا عذيقها المرجب وجذيلها المحكك، أى أنه ابن بجدتها وعمدة فيها .

(٣) إشارة إلى قول امرئ القيس : فأنزل منه العصم من كل منزل . والعصم : جمع أعصم وهو الظبى الذى فى ذراعه بياض .

فقلت : يا فاضلُ ادْنُ فقد مَنّيت ، وهاتِ فقد أثنيت . فدنا وقال : سلونى أَجبكم ، واسمعوا أَعجبكم ، فقلنا : ما تقول فى امرئ القيس قال : هو أول من وقف بالديار وعرَصاتها . واغتدى والطير فى وُكُناتها ، ووصف الخيل بصفاتها ، ولم يقل الشعر كاسباً ، ولم يجد القول راغباً ، فَفَضَلَ مَنْ تفتّق للحيلة لسانه ، وانتجع للرغبة بَنانُه .

قلنا : فما تقول فى النابغة ؟ قال : يثلِبُ إذا حَنِق ، ويمدح إذا رغب ، ويعتذر إذا رهِب ، ولا يرمى إلا صائباً .

قلنا فما تقول فى زهير ؟ قال : يذيبُ الشعر والشعر يذيبُه ، ويدعو القول والسحر يجيبُه .

قلنا : فما تقول فى طَرَفة ؟ قال : هو ماء الأشعار وطينتُها ، وكنز القوافى ومدينتُها ، مات ولم تظهر أسرار دفائنه ، ولم تفتح أَغلاقُ خزائنه .

قلنا: فما تقول فى جرير والفرزدق ، وأَيّهما أسبق ؟ فقال : جرير أرقُّ شعراً ، وأَغزَرُ غزْراً ، والفرزدقُ أمتن صخراً ، وأكثر فخراً ، وجرير أوجع هجواً ، وأشرف يوماً . والفرزدق أكثر رَوْماً ، وأكرم قوماً ، وجرير إذا نسب أشجى ، وإذا ثلب أردى ، وإذا مدح أسنى ، والفرزدق إذا افتخر أَجزى . وإذا احتقر أزرى ، وإذا وصف أوفى .

قلنا : فما تقول فى المحدَثين من الشعراء والمتقدمين منهم ؟ قال : المتقدمون أَشرف لفظاً ، وأكثر من المعانى حظّا ، والمتأخرون ألطف صنعاً وأرقّ نسجاً .

قلنا : فلو أريتَ من أشعارك ، ورويت لنا من أخبارك ، قال : خذهما فى معرض واحد ، وقال :

أما تَرَوْنى أتغشّى طِمْرا[(١)] ممتطياً فى الضُّرّ أمراً مُرّا
مُضْطَبِناً[(٢)] على الليالى غِمْرا مُلاقِياً منهـا صروفاً حُمْرا
أقصى أمانىّ طلوعُ الشِّعرى[(٣)] فقد عُنينـا بالأمانى دهرا
وكان هذا الحُرُّ أعلى قدرا وماء هذا الوجه أغلى سِعْرا
ضربتُ للسَّرّا قِباباً خُضْرا فى دار دارا وإوانِ كسْرى
فانقلبَ الدهرُ ابطنٍ ظَهْرا وعاد عُرْف العيشِ عندى نكرا
لم يبقَ من وَفْرىَ إلا ذِكْرا ثم إلى اليومِ هلمَّ جرّا
لولا عجوزٌ لى بسُرَّ مَنْ را[(٤)] وأفرخٌ دون جبالِ بُصْرَى
قد جلب الدهرُ عليهم ضُرّا قتلتُ يا سادةُ نفسى صَبْرا

قال عيسى بن هشام : فأنلته ما تاح ، وأعرض عنا فراح ، فجعلت أنفيه وأثبته، وأنكره وكأنى أعرفه ، ثم دلتنى عليه ثناياه فقلت : الإسكندرى والله ، فقد كان فارقنا خِشْفا[(٥)] ، ووافانا جِلْفا ، ونهضت على إثْره ، ثم قبضت على خصره ، وقلت : ألست أبا الفتح ، ألم نربّك فينا وليداً ، ولبثت فينا من عمرك سنين ، فأى عجوز لك بسرّ من را ؟ ! فضحك إلىّ وقال :

ويحكَ هذا الزمانُ زورُ فلا يغرنَّكَ الغـرورُ
لا تلتزم حالةً ولكنْ دُرْ بالليـالى كما تدورُ

---

(١) ثوب بال .
(٢) حاملا .
(٣) كوكب .
(٤) سر من را أو سر من رأى : بلدة قرب بغداد .
(٥) الخشف : ولد الظبى ويريد به هنا غلاماً .

المقامة الجاحظية

حدَّثنا عيسى بن هشام قال : أثارتني ورفقةً وليمة فأجبت إليها للحديث المأثورِ عن رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم : لو دعيتُ إلى كُراعٍ[1] لأجبت ، ولو أهدى إليَّ ذراعٌ لقبلت ، فأفضى بنا السير إلى دار :

تركتْ والحسنَ تأخذُهُ　تنتقى منـــه وتنتَخِبُ

فانتقتْ منهُ طرائفَهُ　واستزادتْ بعضَ ما تَهَبُ

قد فُرِش بساطُها ، وبسطت أنماطها ، ومُدَّ سِماطُها ، وقومٍ قد أخذوا الوقت بين آسٍ مخضود[2] ، ووردٍ منضود ، ودَنٍّ مفصود ، وناىٍ وعود ، فصرنا إليهم وصاروا إلينا . ثم عكفنا على خِوانٍ قد ملئت حياضُه ، ونوَّرتْ رياضُه ، واصطفَّتْ جِفانُه ، واختلفت ألوانُه ، فمن حالكٍ بإزائه ناصع ، ومن قانٍ تلقاءه فاقع ، ومعنا على الطعام رجل تسافر يده على الخوان ، وتسفر بين الألوان ، وتأخذ وجوه الرُّغْفان[3] ، وتفقأ عيون الجِفان ، وترعى أرض الجيران ، وتجولُ فى القصعة ، كالرُّخِّ[4] فى الرقعة . يزحم باللقمة للقمة ، ويهزم بالمضغة المضغة ، وهو مع ذلك ساكت لا ينبِسُ بحَرْف . ونحن فى الحديث نجرى معه حتى وقف بنا على ذكرِ الجاحظ وخطابته ، ووصفِ ابن المقفع وذُرابَتِه ، ووافق أول الحديث آخر الخوان ، وزلنا عن ذلك المكان ، فقال الرجل : أين أنتم من الحديث الذى كنتم فيه ؟ فأخذنا فى وصف الجاحظ ولَسَنِه[5] ، وحسن

---

(١) الكراع : مستدق الساق .

(٢) ملوى .

(٣) جمع رغيف .

(٤) واحد من حجارة الشطرنج .

(٥) اللسن : طلاقة اللسان .

سَنَنه فى الفصاحة وسُنَنه فيما عرفناه ، فقال : يا قومُ لكل عملٍ رجال ، ولكل مقامٍ مقال ، ولكل دارٍ سكان ، ولكل زمان جاحظ ، ولو انتقدتم ، لبطل ما اعتقدتم .

فكلٌّ كَشَرَ له عن ناب الإنكار ، وأشمَّ بأنْف الإكبار ، وضحكتُ له لأجلُبَ ما عنده ، وقلت : أفِدْنا وزِدْنا ، فقال : إن الجاحظ فى أحدِ شِقّى البلاغةِ يقطِف[1] ، وفى الآخر يقف ، والبليغ من لم يقصِّر نظمه عن نثره ، ولم يُزْرِ كلامه بشعره ، فهل تروون للجاحظ شعراً رائعاً ؟

قلنا : لا ، قال : فهلموا إلى كلامه ، فهو بعيد الإشارات ، قليل الاستعارات ، قريب العبارات ، منقادٌ لعريان الكلام[2] يستعمله ، نفورٌ من معتاصه يهمله ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة ؟ فقلنا : لا ، قال : فهل تحبّ أن تسمع من الكلام ما يخفف عن منكبيك وينمّ على ما فى يديك ، فقلت : إى والله . قال : فأطلقْ لى عن خِنْصرك[3] ، بما يعين على شكرك ، فنلته ردائى ، فقال :

لعمرُ الذى ألقى علىَّ ثيابَه ... لقد حُشيتْ تلك الثيابُ به مجدا
فتى قَمَرتْهُ المكرماتُ رداءَهُ ... وماضربتْ قِدْحًا[4] ولانصبتْ نَردا[5]
أَعِدْ نظراً يامن حبانى ثيابَه ... ولا تدَعِ الأيامَ تهدِمُنى هدّا
وقل للأولى إن أسفروا أسفروا ضحًى ... وإن طلعوا فى غُمَّةٍ طلعوا سعدا

---

(١) يقصر .
(٢) أى الكلام الذى لا تزينه المحسنات البديعية والبيانية .
(٣) يعنى هات أعطنا شيئاً ، أو كما يقول المنجمون : بيض الكتاب ، أى ادفع شيئاً .
(٤) أحد السهام التى يتقامرون بها .
(٥) النرد تطلق اليوم على ما يسمونه (طاولة الزهر) .

صِلوا رَحِمَ العليا وَبُلُّوا لَهَاتِها[1] فخيرُ النَّــــدى ما سحَّ وابلهُ نقدا

قال عيسى بن هشام : فارتاحت الجماعة إليه ، وانثالت الصِّلاتُ عليه ، وقلت لما تآنسنا : من أين مطلع هذا البدر ، فقال :

إســـكندرية داري لو قرَّ فيها قراري

لــكنَّ ليلي بنجدٍ وبالحجازِ نهـــاري

ب — من المقامات الفكاهية

المقامة المَضيرية

حدّثنا عيسى بن هشام قال : كنت بالبصرة ، ومعى أبو الفتح الإسكندرى ، رجلُ الفصاحة يدعوها فتجيبهُ ، والبلاغةِ يأمرها فتطيعهُ ، وحضرنا معه دعوة بعض التّجار فقُدّمتْ إلينا مَضِيرة[2] تُثْنى على الحضارة ، وتترجرجُ فى الغَضارة ، وتؤذن بالسلامة ، وتشهد لمعاوية ، رحمه الله ، بالإمامة ، فى قصعة يزلّ عنها الطرف ، ويموجُ فيها الظّرف ، فلما أخذت من الخوان مكانَها ، ومن القلوب أوطانَها ، قام أبو الفتح الإسكندرى يلعنُها وصاحبها ، ويمقتها وآكلها ، ويثلبها وطابخهَا ، وظنناه يمزح ، فإذا الأمر بالضد ، وإذا المزاح عين الجد ، وتنحى عن الخوان ، وترك مساعدة الإخوان ، ورفعناها فارتفعت معها القلوب ، وسافرت خلفها العيون ، وتحلبت لها الأفواه[3] ، وتلمّظت لها الشفاه ، واتقدت لها الأكباد ، ومضى فى إثرها الفؤاد ، ولـكنا ساعدناه على هجرها ، وسألناه عن

(١) لحمة مدلاة فى سقف الحنك .

(٢) لعلها تشبه ما نسميه اليوم كبة أرنبية أو الكبة بلبنية .

(٣) سال لعابها .

أمرها ، فقال : قصّتى معها أطول من مصيبتى فيها ، ولو حدّثتكم بها لم آمن المقت وإضاعة الوقت ، قلنا : هات .

قال : دعانى بعض التجار إلى مضيرة وأنا ببغداد ، ولزمنى ملازمة الغريم ، والكلب لأصحاب الرقيم[١] ، إلى أن أجبته إليها وقمنا ، فجعل طول الطريق يثنى على زوجته ، ويفدّيها بمهجته ، ويصف حذقَها فى صنعتها ، وتأنقها فى طبخها ، ويقول : يا مولاى ، لو رأيتها ، والخرقة فى وسطها ، وهى تدور فى الدور ، من التنوّر إلى القدور ، ومن القدور إلى التنوّر ، تنفث بفيها النار ، وتدقّ بيديها الأبزار . ولو رأيت الدخان وقد غبّر فى ذلك الوجه الجميل ، وأثّر فى ذلك الخدّ الصقيل ، لرأيت منظراً تحار فيه العيون . وأنا أعشقها لأنها تعشقنى ، ومن سعادة المرء أن يرزق المساعدة من حليلته ، وأن يسعد بظعينته ، ولا سيما إذا كانت من طينته . وهى ابنة عمى لَحًّا . طينتها طينتى ، ومدينتها مدينتى ، وعمومتها عمومتى ، وأرومتها أرومتى . لكنها أوسع منى خُلقاً ، وأحسن خَلقاً . وصدعنى بصفات زوجته ، حتى انتهينا إلى محلته . ثم قال : يا مولاى ، ترى هذه المحلة . هى أشرف محالّ بغداد يتنافس الأخيار فى نزولِها . ويتغاير الكبار فى حلولِها . ثم لا يسكنها غير التجار . وإنما المرء بالجار . ودارى فى السِّطّة[٢] من قلادتها ، والنقطة من دائرتها . كم تقدّر يا مولاى ، أنفق على كل دار منها ؟ قله تخميناً ، إن لم تعرفه يقيناً . قلت : الكثير . فقال : يا سبحان الله ما أكبر هذا الغلط ، تقول الكثير فقط ! وتنفّس الصُّعَداء ، وقال سبحانَ من يعلم الأشياء .

وانتهينا إلى باب داره . فقال : هذه دارى كم تقدر يا مولاى ، أنفقتُ على هذه الطاقة . أنفقت والله عليها فوق الطاقة ، ووراء الفاقة . كيف ترى صنعتها

---

(١) أهل الكهف ، وكلبهم مشهور .

(٢) الوسط .

وشكلها ؟ أرأيت بالله مثلها ! انظر إلى دقائق الصنعة فيها وتأمل حسن تعريجِها فكأنما خُطّ بالبركار . وانظر إلى حذق النجّار فى صنعة هذا الباب . اتخذه من كم ؟ قل : ومن أين أعلم . هو ساجٌ من قطعة واحدة لا ماروض [(١)] ولا عفن . إذا حُرّكَ أنّ ، وإذا نُقر طنّ . من اتخذه يا سيدى ؟ اتخذه أبو إسحق بن محمد البصرى ، وهو ، والله ، رجل نظيف الأثواب . بصير بصنعة الأبواب ، خفيف اليد فى العمل . لله درُّ ذلك الرجل ! بحياتى لا استعنت إلا به على مثله .

وهذه الحلقة تراها ؟ اشتريتها فى سوق الطرائف من عمران الطرائفى بثلاثة دنانير معزّية ، وكم فيها يا سيدى من الشبه ؟ فيها ستة أرطال ، وهى تدور بلولب فى الباب . بالله دورها ، ثم أنقرها وأبصرها ، وبحياتى عليك لا اشتريت الحلَق إلا منه فليس يبيع إلا الأعلاق .

ثم قرع الباب ودخلنا الدهليز وقال : عمّركِ الله يا دار ، ولا خرّبكِ يا جدار ، فما أمتنَ حيطانَك ، وأوثق بنيانَك ، وأقوى أساسَك ! تأمل بالله معارجها وتبيّن دواخلها وخوارجها ، وسلنى : كيف حصلتها ، وكم من حيلة احتلتها ، حتى عقدتها ؟ كان لى جار يكنى أبا سليمان يسكن هذه المحلة وله من المال ما لا يسعه الخزن ، ومن الصامت ما لا يحصره الوزن . مات رحمه الله وخلف خلفاً أتلفه بين الخمر والزمر ، ومزّقه بين النرد والقمْر ، وأشفقت أن يسوقه قائد الاضطرار ، إلى بيع الدار ، فيبيعها فى أثناء الضجر ، أو يجعلها عرضةً للخطر . ثم أراها ، وقد فاتنى شراها ، فأتقطع عليها حسرات ، إلى يوم الممات . فعمدت إلى أثواب لا تنِضّ [(٢)] تجارتها ، فحملتها إليه وعرضتها عليه ، وساومته على أن يشتريها

---

(١) المأروض . الذى أكلته الأرضة .

(٢) كاسدة ، غير نافقة .

نسيّة[١]، والمدبر يحسب النسيّة عطية ، والمتخلف يعتدّها هدية ، وسألته وثيقةً بأصل المال ففعل وعقدها لى ، ثم تغافلت عن اقتضائه حتى كادت حاشية حاله ترقّ فأتيته فاقتضيته ، واستمهلنى فأنظرته ، والتمس غيرها من الثياب فأحضرته ، وسألته أن يجعل داره رهينة لدىّ ، ووثيقة فى يدىّ ، ففعل . ثم درّجته بالمعاملات إلى بيعها حتى حصلت لى بجدّ صاعد ، وبخت مساعد ، وقوة ساعد ، ورب ساعٍ لقاعد ، وأنا بحمد الله مجدود . فى مثل هذه الأحوال محمود ، وحسبك يامولاى ، أنى كنت منذ ليال نائماً فى البيت مع من فيه إذ قُرِع علينا الباب ، فقلت : من الطارق المنتاب ؟ فإذا امرأة معها عقدُ لآل . فى جلدة ماء ورقّةِ آل . تعرضه للبيع ، فأخذته منها إخذة خَلْس ، واشتريته بثمنٍ بخس ، وسيكون له نفع ظاهر ، وربح وافر ، بعون الله ودولتك ، وإنما حدثتك بهذا الحديث لتعلم سعادة جدى فى التجارة ، والسعادة تنبط الماء من الحجاة ، الله أكبر ! لا ينبئك أصدق من نفسك ، ولا أقرب من أمسك . اشتريت هذا الحصير فى المناداة ، وقد أُخرج من دور آل الفُرات ، وقت المصادرات وزمن الغارات . وكنت أطلب مثله منذالزمن الأطول فلا أجد . والدهر حبلى ليس يدرى ما يلد . ثم اتفق أنى حضرتُ باب الطاق . وهذا يعرض فى الأسواق . فوزنت فيه كذا وكذا ديناراً . تأمل بالله دقته ولينه ، وصنعته ولونه . فهو عظيم القدر ، لا يقع مثله إلا فى الندر . وإن كنت سمعت بأبى عمران الحصيرى فهو عمله . وله ابن يخلفه الآن فى حانوته لا يوجد أعلاق الحصر إلا عنده . فبحياتى لا اشتريت الحصر إلا من دكانه ، فالمؤمن ناصحٌ لإخوانه ، لا سيما من تحرّم بخوانه .

ونعود إلى حديث المضيرة ، فقد حان وقت الظهيرة ، ياغلام ، الطستَ والماء ،

---

(١) بيع بثمن مؤجل .

فقلت : الله أكبر ربما قرب الفرج ، وسهل المخرج . وتقدم الغلام ، فقال : ترى هذا الغلام؟ إنه رومى الأصل عراقى النشء . تقدم ياغلام واحسر عن رأسك ، وشمّر عن ساقك ، وانفضْ عن ذراعك ، وافترّ عن أسنانك ، وأقبل وأدبر . ففعل الغلام ذلك ، وقال التاجر : بالله من اشتراه ! اشتراه والله ، أبو العباس ، من النخّاس . ضع الطست ، وهات الإبريق ، فوضعه الغلام وأخذه التاجر وقلّبه وأدار فيه النظر ثم نقره ، فقال : انظر إلى هذا الشبه [1] كأنه جذوة اللهب ، أو قطعة من الذهب ، شَبَهُ الشام ، وصنعة العراق ، ليس من خلقان [2] الأعلاق ، قد عرف دور الملوك ودارها . تأمل حسنه وسلنى : متى اشتريته ! اشتريته والله عام المجاعة ، وادّخرته لهذه الساعة . يا غلام ، الإبريق ، فقدّمه ، وأخذه التاجر فقلّبه ، ثم قال : وأنبوبه منه . لا يصلح هذا الإبريق إلا لهذا الطست ، ولا يصلح هـذا الطست إلا مع هذا الدست ، ولا يحسن هذا الدست إلا فى هذا البيت . ولا يجمل هذا البيت إلا مع هذا الضيف .

أرسل الماء يا غلام ، فقد حان وقت الطعام ، بالله ترى هذا الماء ما أصفاه أزرق كعين السنّور ، وصافٍ كقضيب البلّور ، استُقِى من الفرات واستُعمل بعد البيات ، فجاء كلسان الشمعة ، فى صفاء الدمعة ، وليس الشأن فى السقّاء ، الشأن فى الإناء ، لايدلّك على نظافة أسبابه ، أصدق من نظافة شرابه . وهذا المنديل ! سلنى عن قصته . فهو نسج جُرْجان ، وعمل أرجّان ، وقع إلىّ فاشتريته ، فاتخذت امرأتى بعضه سراويلا ، واتخذت بعضه منديلا ، دخل فى سراويلها عشرون ذراعاً ، وانتزعت من يدها هذا القَدر انتزاعاً ، وأسلمته إلى المطرّز حتى صنعه كما تراه وطرزه . ثم رددته من السوق ، وخزنته فى الصندوق ، وادّخرته للظِّراف ، من

(١) الشبه : النحاس الأصفر أو البرونز .
(٢) الرث البالى .

الأضياف ، لم تذله عرب العامة بأيديها ، ولا النساء لمآقيها ، فلكل علق يوم ، ولكل آلة قوم .

يا غلام ، الخوان ، فقد طال الزمان ، والقصاع ، فقد طال المصاع [١] . والطعام ، فقد كثر الكلام ، فأتى الغلام بالخوان ، وقلبه التاجر على المكان ، ونقره بالبنان ، وعجمه بالأسنان ، وقال : عمَّر اللهُ بغداد فما أجودمتاعها ، وأظرف صُنَّاعها !

تأمل بالله هذا الخوان ، وانظر إلى عَرض متنه ، وخفّة وزنه ، وصلابة عوده وحسن شكله ، فقلت : هذا الشكل ، فمتى الأكل ! ؟ فقال : الآن . عجّل ياغلامُ ، الطعامَ . لكنّ الخُوان قوائمهُ منه .

قال أبو الفتح : فجاشت نفسى وقلت : لقد بقى الخَبْزُ وآلاته ، والخبز وصفاته ، والحنطة من أين اشتريت أصلا ، وكيف اكترى لها حملا ، وفى أى رحى طَحن ، وإجَّانة [٢] عَجن ، وأى تنُّور سجر ، وخباز استأجر ، وبقى الحطب من أين احتطب ، ومتى جلب وكيف صففف حتى جفف وحبس ، حتى يبس . وبقى الخبَّاز ووصفه ، والتلميذ ونعته ، والدقيق ومدحه ، والخمير وشرحه ، والملح وملاحته ، وبقيت السُّكُرّجات [٣] من اتخذها ، وكيف انتقذها [٤] ، ومن عملها ، والخلّ كيف انتقى عنبه ، أو اشترى رطبه ، وكيف صُهرجَتْ معصرته واستخلص لبه . وكيف قُيِّرَ حُبّه [٥] ، وكم يساوى دَنّه ؛ وبقى البقل كيف احتيل له حتى قطف ، وفى أى مبقلة رصف ، وكيف تؤنق حتى نُظّف ، وبقيت

---

(١) المجالدة والمقاتلة .
(٢) المركن الذى يعجن فيه .
(٣) آنية الطعام .
(٤) كيف اتصلت إليه بالشراء .
(٥) الخابية .

المضيرة كيف اشترى لحمها ، ووُفّى شحمها ، ونصبت قدرها ، وأُجّجت نارها ، ودُقّت أبزارها ، حتى أجيد طبخها وعُقّد مرقها ، وهذا خطب يطمّ ، وأمر لا يتم .

فقمتُ ، فقال : أين تريد ؟! فقلت : حاجةً أقضيها ، فقال : يامولاى تريد كنيفاً يُزرى بربيعىّ الأمير ، وخريفىّ الوزير ، قد جُصّص أعلاه وصهرج أسفله، وسُطّح سقفه وفرشت بالمرمر أرضه ، يزل عن حائطه الذّرّ فلا يعلق ، ويمشى على أرضه الذباب فيزلق ، عليه بابٌ غيرانه [1] من خليطى ساجٍ وعاج ، مزدوجين أحسن ازدواج ، يتمنى الضيف أن يأكل فيه . فقلت : كل أنت من هذا الجراب ، لم يكن الكنيف فى الحساب .

وخرجت نحو الباب ، وأسرعت فى الذهاب ، وجعلت أعدو وهو يتبعنى ويصيح يا أبا الفتح ! المضيرة . وظن الصبيان أن المضيرة لقب لى فصاحوا صياحه فرميت أحدهم بحجر ، من فرط الضجر ، فلقى رجلٌ الحجرَ بعمامته فغاص فى هامته . فأُخذت من النِّعال بما قدُم وحدُث ، ومن الصفع بما طاب وخبث ، وحشرت إلى الحبس ، فأقمت عامين فى ذلك النحس ، فنذرت أن لا آكلَ مضيرةً ما عشت . فهل أنا فى ذا يا آل همدان ظالم .

قال عيسى بن هشام : فقبلنا عذره ونذرنا نذره ، وقلنا : قديماً جنتِ المضيرة على الأحرار ، وقدمت الأراذل على الأخيار .

---

(١) فواصله .

ج – من المقامات القصصية

المقامة البشرية

حدَّثنا عيسى بن هشام قال : كان بِشْرُ بن عَوانةَ العبدىّ صُعلوكاً فأغارَ على رَكْبٍ فيهم امرأةٌ جميلة فتزوّج بها وقال :

ما رأيت كاليوم ! فقالت :

أعْجَبَ بِشْراً حَوَرٌ فى عينى　　وساعدٌ أبيضُ كاللُّجَين
ودونه مسرحَ طرْفِ العَيْنِ　　خَمْصانةٌ ترفُلُ فى حِجْلَيْنِ (١)
أحسنُ مَنْ يمشى على رِجْلَيْنِ　　لو ضَمَّ بِشْرٌ بينها وَبيْنى
أدامَ هجرِى وأطال بَينى (٢)　　ولو يقيسُ زَيْنَها بزَيْنِى
لَأسفرَ الصّبحُ لذى عينين

قال بشر : ويحك ! من عَنَيْتِ ؟ فقالت : بنت عمّك فاطمة ، فقال : أهى من الحسن بحيثُ وصفت . قالت : وأزيد وأكثر ، فأنشأ يقول :

ويحكِ يا ذاتَ الثّنايا البيضِ (٣)　　ما خِلتِنى منك بمُستعيضِ
فالآن إذ لوّحتِ بالتّعريضِ　　خلوتِ جوّاً فاصْفِرى وبِيضى (٤)
لا ضُمَّ جفناى على تغميضِ　　ما لم أشُلْ عرضى من الحضيض (٥)

---

(١) خمصانة : ضامرة الكشح . الحجل الخلخال .

(٢) البين : الفراق .

(٣) الثنايا : الأسنان .

(٤) إشارة إلى قول كليب وائل للقبرة التى نزلت حماه :

يا لك من قبرة بمعمر　　خلا لك الجو فبيضى واصفرى
ونقرى ما شئت أن تنقرى

(٥) أشل : أرفع .

فقالت :

كم خاطب في أمرها ألحَّا وهي إليك ابنــةُ عمٍّ لَحَّا

ثم أرسل إلى عمه يخطب ابنته ، ومنعه العمُّ أمنيته ، فآلى ألا يُرعى [١] على أحد منهم إن لم يزوّجه ابنته ، ثم كثرت مضرّاته فيهم ، واتّصلت مَعرّتهُ إليهم ، فاجتمع رجال الحيّ إلى عمه وقالوا : كفَّ عنا مجنونك فقال : لا تلبسوني عارًا ، وأمهلوني حتى أهلكه ببعض الحيل ، فقالوا : أنت وذاك ، ثم قال له عمّه : إني آليت أن لا أزوّج ابنتي هذه إلا ممن يسوق إليها ألف ناقة مَهْرًا ولا أرضاها إلا من نُوقِ خُزاعة ، وغرضُ العمّ كان أن يسلك بشر الطريق بينه و بين خزاعة فيفترسه الأسد ، لأن العرب قد كانت تحامت عن ذلك الطريق وكان فيه أسدٌ يسمى داذًا وحيّة تدعى شجاعًا يقول فيهما قائلهم :

أفتكُ من داذٍ ومن شجاعِ إن يكُ داذٌ سَيِّد السبّاعِ

فإنها سيِّدةُ الأفاعي

ثم إن بِشْرًا سلك ذلك الطريق فما نصّفه [٢] حتى لقي الأسد وقمص مهره فنزل وعقره ، ثم اخترط سيفه إلى الأسد واعترضه ، وقطّه [٣] ثم كتب بدم الأسد على قميصه إلى ابنة عمه :

أفاطمَ لو شهدتِ ببطن خبتٍ وقد لاقى الهزبرُ أخاك بِشْرا

إذًا لرأيت ليثاً زارَ ليثاً هزبراً أغلباً لاقى هزبْرا

تبهنس [٤] ثم أحجم عنه مُهرِي محاذرَةً فقلت عُقرتَ مُهْرا

---

(١) يبقى .

(٢) نصفه : بلغ منتصفه .

(٣) قطعه عرضاً .

(٤) تبختر .

أنِلْ قدميَّ ظهرَ الأرض إنى ... رأيتُ الأرضَ أثبتَ منك ظَهْرا

وقلتُ له وقد أبدى نصالاً (١) ... محدّدة ووجهاً مكفهرّا

يكفكفُ غيلةً إحدى يديهِ ... ويبسطُ للوثوبِ علىَّ أُخرى

يُدلُّ بمخلبٍ وبحدِّ نابٍ ... وباللحظات تحسبهنَّ جَمْرا

وفى يُمناىَ ماضى الحدِّ أبقى ... بمَضْربهِ قراعُ الموتِ أُثْرا (٢)

ألم يبلغك ما فعلتْ ظباهُ ... بكاظمةٍ غداةَ لقيتُ عمْرا

وقلبى مثلُ قلبك ليس يخشى ... مصاولةً فكيف يخافُ ذُعرا

وأنت تروم للأشبال قوتاً ... وأطلبُ لابنة الأعمام مَهْرا

ففيمَ تسومُ مثلى أن يولّى ... ويجعلُ فى يديكَ النفس قَسْرا

نصحتكَ فالتمسْ ياليثُ غيرى ... طعاماً إنَّ لحمى كانَ مُرّا

فلمَّا ظنَّ أن الغشَّ نصحى ... وخالفَنى كأنى قلتُ هُجْرا

مشى ومشيتُ من أسدين راما ... مراماً كان إذ طلباهُ وَعْرا

هززتُ له الحُسامَ فخلتُ أنى ... شققتُ به لدى الظلماء فجرا

وجُدْتُ له بجائشةٍ أرتهُ ... بأنْ كذبتهُ ما منّته غدرا

وأطلقتُ المهنَّد من يمينى ... فقَدَّ له من الأضلاع عَشْرا

فخرَّ مجدّلاً بدمٍ كأنى ... هدمتُ به بناءً مشمخرّا

وقلتُ لهُ يعزّ علىّ أنى ... قتلت مناسبى جلداً وقهرا

ولكن رمتَ شيئاً لم يرمْهُ ... سواكَ فلم أُطِقْ يا ليثُ صبرا

---

(١) حديدة السيف وهو يعنى أنياباً .

(٢) الأثر : بضم الهمزة ندوب الجراح وثلمات السيوف .

تحاول أن تعلّمنى فرارًا لعمرُ أبيك قد حاولتَ نُكرا

فلا تجزعْ فقد لاقيتَ حرًّا يحاذرُ أن يُعابَ فمتَّ حُرّا

فإن تكُ قد قُتلتَ فليس عاراً فقد لاقيتَ ذا طرَفَين حرّا

فلما بلغت الأبيات عمه ندم على[1] ما منعه تزويجها ، وخشىَ أن تغتاله الحيّة فقام فى أثره وبلغه وقد ملكته سَورةُ الحية ، فلما رأى عمَّه أخذته حمية الجاهلية فجعل يده فى فم الحية وحكَّم سيفه فيها فقال :

بشرٌ إلى المجد بعيدٌ همّهُ لما رآه بالعراء عمُّه

قد ثكلته نفسُه وأُمُّهُ جاشتْ به جائشةٌ تَهمُّهُ

قام إلى اُبنٍ للفلا يؤمّهُ فغابَ فيه يدُهُ وكفّهُ

ونفسه نفسى وسَمىّ سَمُّهُ

فلما قتل الحية قال عمّه : إنى عرضتك طمعاً فى أمر قد ثنى الله عنانى عنه ، فارجع لأزوجك ابنتى . فلما رجع جعل بشر يملأ فمه فخراً حتى طلع أمرد كشِقِّ القمر على فرسه مدجّجاً فى سلاحه ، فقال بشر : يا عم ، إنى أسمع حسَّ صيد ، وخرج فإذا بغلام على قيد ، فقال : ثكلتك أُمُّك يا بشر ، إن قتلتَ دودةً وبهيمة تملأ ماضغيك فخراً ! أنت فى أمان إن سلّمتَ عمك . فقال بشر : من أنت لا أم لك ، قال : اليومُ الأسود والموت الأحمر ، فقال بشر : ثكلتك من سَلَحَتْك[2] . فقال : يا بشر ، ومن سلحتك .

وكرّ كل واحد منهما على صاحبه ، فلم يتمكن بشر منه ، وأمكنَ الغلامَ عشرون طعنة فى كلية بشر كلّما مسّه شبا السنان[3] حماه عن بدنه إبقاءً عليه ،

---

(١) ما مصدرية بمعنى أن .

(٢) من ألقتك من بطنها .

(٣) شبا السنان : حده .

ثم قال : يا بشر كيف ترى ، أليس لو أردتُ لأطعمتك أنياب الرمح ؟ ثم ألقى رمحه واستلّ سيفه فضرب بشراً عشرين ضربة بعرض السيف ولم يتمكن بشر من واحدة ، ثم قال : يا بشر سلم عمك واذهب فى أمان ، قال : نعم ولكن بشريطة أن تقول لى من أنت ، فقال : أنا ابنك . فقال : يا سبحانَ اللهِ ما قارنت عقيلة قط فأنّى لهذه المنحة ! فقال : أنا ابن المرأة التى دلّتك على ابنة عمك فقال بشر :

تلك العصا من هذه العُصَيّهْ(١) هل تلد الحيّةُ إلا الحيّهْ

وحلف لا ركبَ حِصاناً ولا تزوّج حَصاناً(٢) ، ثم زوج ابنة عمه لابنهِ .

المقامة الأسدية

حدّثنا عيسى بن هشام قال : كان يبلُغنى من مقامات الإسكندرى ومقالاتِهِ ما يَصْغَى إليه النُّفُور(٣) ، وينتفض له العصفور ، ويروى لنا من شعره مايمتزج بأجزاء النفس رقّة ، ويغمض عن أوهام الكهنة دقّة ، وأنا أسأل الله بقاءه ، حتى أرزقَ لقاءه ، وأتعجب من قعود همته بحالته ، مع حسن آلته ، وقد ضرب الدهر شؤونه بأسداد(٤) دونه ، وهلمّ جرّا ، إلى أن اتفقت لى حاجة بحمص ، فشحذت إليها الحرص ، فى صحبة أفرادٍ كنجوم الليل ، أحلاسٍ(٥) لظهور الخيل ، وأخذنا الطريق ننتهب مسافته ، ونستأصل شأفته ، ولم نزل نفرى أسنّة النّجاد بتلك الجياد ، حتى صرنَ كالعصىّ ، ورجعن كالقسىّ .

---

(١) العصا من العصية : مثل قديم فالعصا اسم فرس جذيمة الأبرش والعصية اسم أمها .
(٢) الحصان : بفتح الحاء المرأة العفيفة .
(٣) النفور : وزن فعول : الكثير النفار .
(٤) جمع سد .
(٥) ملازمين لها .

وتاح لنا وادٍ فى سفح جبل ذى ألاءٍ وأثْلٍ [١] كالعذارى يسرّحن الضفائر ، وينشرن الغدائر ، ومالت الهاجرة بنا إليها ، ونزلنا نغوّر ونغور ، وربط الأفراس بالأمراس ، وملنا مع النعاس ، فما راعنا إلا صهيل الخيل . ونظرت إلى فرسى وقد أرهف أذنيه ، وطمح بعينيه، يجذّ [٢] قوى الحبل بمشافره ، ويخدّ خدّ الأرض بحوافره ، ثم اضطربت الخيل فأرسلت الأبوال وقطعت الحبال ، وأخذت نحوَ الجبال ، وطار كلٌّ واحدٍ منا إلى سلاحه فإذا السبعُ فى فروة الموت ، قد طلع من غابه ، منتفخاً فى إهابه ، كاشراً عن أنيابه ، بطَرْفٍ قد مُلِىءَ صلفا ، وأنفٍ قد حُشى أَنفاً ، وصدرٍ لا يبرحه القلب ، ولا يسكنه الرُّعب ، وقلنا خطبٌ ملمّ ، وحادث مهمّ ، وتبادر إليه من سرعان [٣] الرفقة فتى :

أخضرُ الجِلدةِ فى بيتِ العرَبْ ۞ يملأُ الدَّلْو إلى عَقْد الكَرَبْ [٤]

بقلبٍ ساقه قَدْر ، وسيفٍ كله أثْر ، وملكته سورة الأسد فخانته أرض قدمه ، حتى سقط ليده وفمه ، وتجاوز الأسد مصرعه إلى من كان معه ، ودعا الحين أخاه بمثل ما دعاه فصار إليه ، وعقل الرعب يديه ، فأخذ أرضه ، وافترش الليث صدره ، ولكنى رميته بعمامتى وشغلت فمه ، حتى حقنتُ دمه . وقام الفتى فوَجَأَ [٥] بطنه حتى هلك الفتى من خوفه ، والأسد للوجأة فى جوفه ، ونهضنا فى إثر الخيل فتألّفنا منها ما ثبت وتركنا ما أفلت ، وعدنا إلى الرفيق لنجهّزه .

فلمّا حثونا التربَ فوق رفيقِنا ۞ جزعنا ولكن أىّ ساعةِ مجزعِ

---

(١) شجر .

(٢) يقطع .

(٣) جمع سريع .

(٤) الشطر الثانى من البيت مثل يراد به بلوغ الغاية والنهاية .

(٥) شق .

وعدنا إلى الفلاة وهبطنا أرضها ، وسرنا حتى إذا ضَمَرت المَزادُ[١] ، ونفد الزاد أو كاد يدركه النفاد ، ولم نملك الذهاب ولا الرجوع ، وخفنا القاتلَين الظمأَ والجوع ، عنّ لنا فارس فصمدنا صمده ، وقصدنا قصده ، ولما بلَغنا نزل عن حرّ فرسه ، ينقش الأرض بشفتيه ، ويلَقى التراب بيديه ، وعَمَدنى من بين الجماعة فقبّل ركابى ، وتحرّم بجنابى ، ونظرتُ فإذا هو وجهٌ يبرق برق العارض المتهلّلِ ، وقوام متى ما ترقّ العين فيه تسهّل ، وعارض قد اخضرّ ، وشارب قد طرّ[٢] ، وساعد ملآن ، وقضيب ريّان ، ونجار تركىّ ، وزى مَلَكى .

فقلنا : ما لك لا أبَا لك ! فقال : أنا عبد بعض الملوك همّ من قتلى بِهَمّ ، فهمت على وجهى إلى حيث ترانى . وشهدت شواهد حاله ، على صدق مقاله ، ثم قال : أنا اليوم عبدك ، ومالى مالك ، فقلت : بشرى لك وبك . أدّاك سيرك إلى فناء رحب ، وعيش رطب .

وهنأتنى الجماعة ، وجعل ينظر فتفتننا ألحاظُه ، وينطق فتقتلنا ألفاظُه ، فقال : يا سادة ، إن فى سفح الجبل عيناً وقد ركبتم فلاةً عوراء ، فخذوا من هنالك الماء ، فلوينا الأعنّة إلى حيث أشار ، وبلغناه وقد صهرت الهاجرة الأبدان ، وركب الجنادب[٣] العيدان ، فقال : ألا تَقيلون[٤] فى هذا الظلّ الرّحْب ، على هذا الماء العَذْب ، فقلنا : أنت وذاك .

فنزل عن فرسه وحلّ منطقته ، ونحّى قُرْطُقته[٥] ، فما استتر عنّا إلا بغلالة تنِمّ على بدنه ، فما شككنا أنه خاصم الولدان ، ففارق الجنان ، وهربَ من

---

(١) المزاد : جمع مزادة وهى قربة الماء .
(٢) طلع .
(٣) نوع من الجراد .
(٤) أى ألا تستسلمون إلى القيلولة وهى النوم بعد الظهر .
(٥) قباء بلا بطانة .

رِضوان . وعمد إلى السروج فحطَّها ، و إلى الأفراس فحسَّها ، و إلى الأمكنة فرشّها ، وقد حارت البصائر فيه ، ووقفت الأبصار عليه ، فقلت : يا فتى ، ما ألطفَك فى الخدمة ، وأحسنَك فى الجملة ، فالويل لمن فارقته ، وطوبى لمن رافقته ، فكيفَ شكرُ الله على النعمة بك ؟ ! فقال ما سترونه منى أكثر . أتعجبكم خفّتى فى الخدمة ، وحسنى فى الجملة ، فكيف لو رأيتمونى فى الرفقة ، أريكم من حِذْقى طُرَفاً ، لتزدادوا بى شَغَفاً ؟ فقلنا : هاتِ ، فعمد إلى قوس أحدنا فأوتره وفوّق سهماً فرماه فى السماء ، وأتبعه بآخر فشقّه فى الهواء .

وقال : سأريكم نوعاً آخر ، ثم عمد إلى كنانتى فأخذها و إلى فرسى فعلاه ، ورمى أحدنا بسهمٍ أثبته فى صدره ، وآخر طيره من ظهره ، فقلت : ويحك ما تصنع ؟ ! قال : اسكت يا لُكَعَ[1] ، والله لَيشدنَّ كل منكم يد رفيقه ، أو لأغصّنّه بريقه .

فلم ندر ما نصنع وأفراسنا مربوطة ، وسروجنا محطوطة ، وأسلحتنا بعيدة وهو راكب ونحن رجّالة ، والقوس فى يده يرشقُ بها الظهور ، ويمشقُ بها البطون والصدور ، وحين رأينا الجد ، أخذنا القدّ[2] ، فشد بعضنا بعضاً وبقيت وحدى لا أجد من يشدّ يدى ، فقال : اخرج بإهابك ، عن ثيابك ، فخرجت . ثم نزل عن فرسه وجعل يصفع الواحد منا بعد الآخر ، وينزع ثيابه ، وصار إلىّ ، وعلىّ خُفّان جديدان ، فقال : علىّ خلعه ، ثم دنا إلى لينزع الخفّ ، ومددت يدى إلى سكين كان معى فى الخفّ ، وهو فى شغله فأثبتّه فى بطنه ، وأبَنْتُه من مَتْنه ، فما زاد على فمٍ فغَرَه[3] ، وألقمه حجره .

---

(١) اللئيم .

(٢) سير من جلد .

(٣) فتحه .

وقمت إلى أصحابى فحللتُ أيديهم وتوزعنا سَلَب القتيلين ، وأدركنا الرفيق وقد جاد بنفسه ، وصار لرمسه ، وصرنا إلى الطريق ووردنا حمص بعد ليالٍ خمس ، فلما انتهينا إلى فُرْضَةٍ(١) من سُوقها رأينا رجلاً قد قام على رأس ابنٍ وَبُنَيّة ، بِجِراب وعُصَيّة وهو يقول :

رحمَ اللهُ من حَشَا　　فى جِرابى مكارِمَهْ

رحمَ اللهُ من رَنَا　　لسعيدٍ وفاطمَهْ

إنه خادمٌ لكُمْ　　وهى لا شكَّ خادمَهْ

قال عيسى بن هشام : فقلت إن هذا الرجل هو الإسكندرى الذى سمعت به ، وسألت عنه فإذا هو هو فدلفت إليه ، وقلت : احتكِمْ حُكْمَك ، فقال : درهم ، فقلت :

لك درهمٌ فى مثله　　ما دام يسعدُنى النَّفَسْ

فاحسب حسابكَ والتمِسْ　　كيما أُنيلَ المُلْتَمَسْ

وقلت له : درهمٌ فى اثنين فى ثلاثة فى أربعة فى خمسة حتى انتهيتُ إلى العشرين ثم قلت : كم مَعَك ؟ قال : عشرون رغيفاً ، فأمرت له بها ، وقلتُ : لا نصرَ مع الخِذلان ، ولا حيلة مع الحِرْمان .

---

(١) الفرضة : المنفرج .

د — من مقامات الكدية

المقامة المكفوفية

حدّثنا عيسى بن هشام ، قال : كنت أجتازُ فى بعض بلادِ الأهواز ، وقصاراى لفظةٌ شَرودٌ أصيدُها ، وكلمة بليغة أستزيدها ، فأدّانى السيرُ إلى رقعةٍ فسيحة من البلد ، وإذا هناك قوم مجتمعون على رجل يستمعون إليه وهو يخبطُ الأرض بعصا على إيقاعٍ لا يختلف ، وعلمت أن مع الإيقاع لحْناً ، ولم أبعدْ لأنال من السَّماع حظّاً ، أو أسمع من الفصيح لفظاً ، فما زلت بالنظارة أزحم هذا وأدفع ذاك حتى وصلت إلى الرجل ، وسرّحتُ الطرفَ منه إلى حُزُقّة[1] كالقرنبى ، أعمى مكفوف ، فى شَملةٍ صوف ، يدور كالخُذروف[2] ، متبرنساً بأطول منه ، معتمداً على عصا فيها جلاجل يخبط الأرض بها على إيقاع غَنِج ، بلحنٍ هَزِج ، وصوتٍ شَجٍ ، من صدر حَرِج ، وهو يقول :

يا قومُ قد أثقلَ دَينى ظهرى ... وطالبتنى طَلّتى[3] بالمهـــرِ

أصبحتُ من بعـد غنىً ووفرِ ... ساكنَ قفرٍ وحليفَ فقرِ

يا قومُ هل بينـكم من حُرِّ ... يعيننى على صروف الدهرِ

يا قومُ قد عيل لفقرى صَبْرِى ... وانكشفتْ عنى ذيولُ السِّتْرِ

وفضَّ ذا الدهرُ بأيدى البَتْرِ ... ما كان لى من فضّـةٍ وتِبـْرِ

آوِى إلى بيتٍ كقيدِ شِبْرِ ... خاملَ قَدْرٍ وصغـيرَ قِدْرِ

---

(١) قصير كبير البطن . والقرنبى الخنفساء .

(٢) لعبة للصبيان شبه بها امرؤ القيس : درير كخذروف الوليد ... إلخ .

(٣) الزوجة .

لو ختمَ اللهُ بخيرٍ أمرى أعقبنى عن عسرٍ بيسرِ
هل من فتىً فيكم كريمِ النَّجْرِ [١] محتسبٍ فىَّ عظيمَ الأجرِ
إن لم يكن مغتنماً للشكرِ

قال عيسى بن هشام : فرقّ له والله قلبي واغرورقت له عينى ، فنلته ديناراً كان معى ، فما لبث أن قال :

يا حسنَها فاقعةٌ [٢] صفراءُ ممشوقةٌ منقوشةٌ قوراءُ
يكادُ أن يقطُرَ منها الماءُ قد أثمرتها همّةٌ علياءُ
نفس فتى يملِكهُ السَّخاءُ يصرفهُ فيه كما يشاءُ
يا ذا الذى يعنيهِ ذا الثَّناءُ ما يتقصَّى قدرَكَ الإطراءُ
امْضِ إلى اللهِ لكَ الجزاءُ

ورحمَ اللهُ من شدَّها فى قَرَنٍ [٣] مثلها ، وآنسها بأختها ، فناله الناس ما نالوه ، ثم فارقهم وتبعتُه وعلمت أنه متعامٍ لسرعة ما عرف الدينار ، فلما نظمتنا خَلْوةٌ مددتُ يمناىَ إلى يُسْرَى عَضُدَيْه وقلت : والله لَتُرِينّى سرك ، أو لأكشفنَّ سترك ، ففتح عن توأمتَىْ لَوْزٍ [٤] . وحدرت لثامه عن وجهه فإذا والله شيخنا أبو الفتح الإسكندرى ، فقلت : أنت أبو الفتح ! فقال : لا

أنا أبو قَلَمونِ فى كلِّ لونٍ أكونُ
اِخترْ من الكسبِ دُونا فإنَّ دهرَكَ دونُ

---

(١) الأصل .
(٢) شديدة الصفرة .
(٣) النير .
(٤) يقصد ما تقوله العوام : عيون لوزية .

زَجٍّ الزمانَ بحُمْقٍ إنَّ الزمانَ زَبونُ[1]
لا تــكذبنَّ بعَقْلٍ ما العقلُ إلا الجُنونُ

المقامة الفزارية

حدَّثنا عيسى بن هشام قال : كنتُ فى بعضِ بلاد فزارة مرتحلاً نجيبة ، وقائداً جنيبة [2] ، يسبَحان بِى سَبْحاَ ، وأنا أهمّ بالوطن فلا الليلُ يثنينى بوعيده ، ولا البعدُ يلوينى ببيده ، فظللت أخبطُ وَرَقَ النهار بعصا التسيار ، وأخوض بطْن الليل ، بحوافر الخيل ، فبينا أنا فى ليلةٍ يضل فيها الغَطاط [3] ، ولا يبصر فيها الوطواط ، أسيح سَيْحاَ ولا سانحَ إلا السَّبُعُ ، ولا بارحَ إلا الضَّبُع ، إذ عنَّ لى راكب تامٌّ الآلات يوم الأَثلات ، يطوى إلىَّ منشورَ الفلوات ، فأخذنى منه ما يأخذُ الأعزل ، من شاكى السلاح . لــكنى تجلدتُ فقلت أرضَكَ لا أُمَّ لك فدونك شرط الحِداد ، وخرطُ القتاد ، وخصمٌ ضخم ، وحَمِيَّةٌ أزدِيَّة ، وأنا سلمٌ إن شئت ، وحربٌ إن أردت، فقل لى من أنت ؟

فقال : سِلْماً أصبت ، فقلت : خيراً أجبت ، فمن أنت؟ قال : نصيح إن شاورت ، فصيحٌ إن حاورت ، ودون اسمى لثام ،لا تميطه الأعلام .

قلت : فما الطُّعْمة [4] ؟ قال أجوب جيوب البلاد ، حتى أقع على جَفْنة جواد ، ولى فؤاد يخدمه لسان ، و بيان يرقمه بنان ، وقصاراى كريم يخفض لى جنيبته [5] ، و ينفض إلىَّ حقيبته ، كابن حر طلع علىَّ بالأمس ، طلوعَ الشمس ،

---

(١) يشبه الزمان ببهيمة ترفس وقت الحلب .
(٢) دابة أخرى يركبها إذا تعبت الأولى وهكذا .
(٣) القطا .
(٤) الحرفة . أسلوب المعاش .
(٥) فردة الحمل .

وغرب عنى بغروبها ، لـكنه غاب ولم يغب تذكاره ، وودّع وشيعتنى آثاره ،
ولا يُنْبِئك عنها ، أَقْرَبُ منها ، وأومأ إلى ما كان لبِسَه .

فقلت : شحَّاذ وربّ الـكعبة أخَّاذ ، له فى الصنعة نَفاذ ، بل هو فيها
أستاذ ، ولا بدَّ من أن ترشح له وتسحّ عليه .

فقلت : يا فتى ، قد جلّيت عبارتك فأين شعرك من كلامك ؟ فقال : وأين
كلامى من شعرى ! ثم استمد غريزته، ورفع عقيرته بصوت ملأ الوادى وأنشأ يقول:

وأروعَ أهداهُ لىَ الليلُ والفلا وخمس تُمسّ الأرض لكن كلاَ وَلاَ
عرضتُ على نارِ المـكارم عودَهُ فـكان مُعَمًّا فى السيادةِ مُخْوَلا
وخادعتــه عن مالهِ فخدعتُــهُ وساهلتُهُ من برّهِ فتسهَّلا
ولما تجالينا وأحمدَ منطقى بلانىَ من نظمِ القريضِ بِما بلا
فما هزّ إلا صارماً حين هزّنى ولم يلقَنى إلا إلى السَّبق أوَّلا
وَلم أَرَهُ إلا أغرَّ محجَّلا وما تحتــه إلا أغرَّ محجَّلا

فقلت له : على رِسْلك يا فتى . ولك فيما يصحبنى حكمك ، فقال : الحقيبة بما
فيها ، فقلت : إِنّ(١) وحاملتها ، ثُمَّ قبضت بجمعى عليه وقلت : لا والذى ألهمها
لَمْساً ، وَشقها من واحدةٍ خمساً ، لا تزايلنى أو أعلم علمك، فَحَدَر لثامه عن وجهه
فإِذا هو ، والله ، شيخُنا أبو الفتح الإسكندرى ، فما لبثت أن قلت

توشَّحت أبا الفتحِ بهذا السيفِ مختالا
فما تصنعُ بالسيفِ إذا لم تكُ قتَّالا
فَصُغْ ما أنتَ حلَّيتَ به سيفكَ خلخالا

(١) إن هنا بمعنى نعم .

المقامة الوصية

حدثنا عيسى بن هشام قال : لما جهّز أبو الفتح الإسكندرى ولده للتجارة أقعده يوصيه فقال بعد ما حمدَ الله وأثنى عليه وصلّى على رسوله صلى الله عليه وسلم :

يا بُنىّ ، إنى و إن وثقتُ بمتانة عقلِك ، وطهارةِ أصلك ، فإنى شفيقٌ والشّفيقُ سيّئ الظن ، ولستُ آمن عليك النفس وسلطانَهـا ، والشهوةَ وشيطانَها ، فاستعن عليهما نهارَك بالصوم ، وليلَك بالنوم ، إنه لَبوسٌ ظِهارتُهُ الجوع ، و بطانته الهُجُوع ، وما لبِسَهما أسدٌ إلا لأنت سَورتُه ، أفهِـمْتَهما يا ابن الخبيثة !

وكما أخشى عليك ذاك فلا آمنُ عليك لِصَّيْن أحدهما الـكَرَم ، واسم الآخر القَرَم [1] فإياكَ و إياهما . إن الـكرم أسرعُ فى المـال من السوس ، و إن القَرَم أشأمُ من البَسوس [2] ، ودعنى من قولهم : إن الله كريم ! إنها خدعة الصبى عن اللبن ، بلى إن الله لـكريم ، ولـكنّ كرَم الله يزيدنا ولا ينقصه ، و ينفعنا ولا يضرّه ، ومن كانت هذه حاله ، فلتكرم خصاله ، فأما كرمٌ لا يزيدُك حتى

---

(١) القرم : شدة الشهوة إلى أكل اللحم .

(٢) البسوس : خالة جساس بن مرة يضرب بها المثل فى الشؤم ذلك أنها كانت السبب فى نشوب الحرب بين بكر وتغلب بأبيات من الشعر أوغرت بها صدر جساس فقتل كليب وائل فى ناقة لرجل من جرم يسمى سعداً كان كليب قد قتلها لأنه وجدها فى مرعاه وكان جساس قد حمى الرجل . أما الأبيات وتسمى بالموثبات فهى هذه :

لعمرى لو أصبحت فى دار منقذ	لما ضيم سعد وهو جار لأبياتى
ولكننى أصبحت فى دار غربة	متى يعد فيها الذئب يعد على شاتى
فيا سعد لا تغرر بنفسك وارتحل	فإنك فى قوم عن الجار أموات
ودونك أذوادى إليك فإننى	محاذرة أن يغدروا ببنياتى
وسر نحو جرم إن جرماً أعزة	ولا تك فينا لاهياً بين نسوات

ينقصنى ، ولا يريشك حتى يبرينى ، فخذلانٌ لا أقول عبقرىّ ، ولـكن بقرىّ ، أفهمتهما يا ابنَ المشؤومة .

إنما التجارة تُنبطُ الماءَ من الحجارة ، وبين الأكلة والأكلة ريح البحر ، بيد أن لا خطر ، والصينُ غير أن لا سفر . أفتتركه وهو معرضٌ ثم تطلبه وهو مُعْوِز ، أفهمتهما لا أمّ لك !

إنه المال عافاك الله فلا تنفقنّ إلا من الربح ، وعليك بالخبز والملح ، ولك فى الخلّ والبصل رُخْصة ما لم تذمَّهما ، ولم تجمع بينهما ، واللحم لحمك وما أراك تأكله ، والحلو طعامُ من لا يبالى على أى جنبيه يقع ، والوجبات عيش الصالحين ، والأكل على الجوع واقية الفوت ، وعلى الشِّبَعِ داعيةُ الموت ، ثم كن مع الناس كلاعب الشطرنج : خذ كل ما معهم واحفظ كل ما معك .

يا بنىَّ ، قد أسمعتُ وأبلغت ، فإن قبلتَ فالله حسبُك ، وإن أبيت فالله حسيبُك[(١)] ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

هـ — من المقامات المدحية

المقامة الملوكية

حدّثنا عيسى بن هشام قال : كنت فى منصرَفى من اليمن ، وتوجّهى إلى نحو الوطن ، أسرى ذات ليلة لا سانحَ بها إلا الضَّبُع ، ولا بارحَ إلا السَّبُع ، فلما انتُضِىَ نصلُ الصباح ، وبرز جبين المصباح ، عنَّ لى فى البَراح[(٢)] ، راكبٌ شاكى السّلاح ، فأخذنى منه ما يأخذ الأعزل ، من مثله إذا أقبل ، لـكنى تجلدت فوقفت ، وقلت : أرضَك لا أمَّ لك ، فدونى شَرْط الحداد ، وخرط

(١) محاسبك

(٢) الأرض الجرداء الواسعة .

القتاد ، وحمّية أزْدية ، وأنا سلم إن كنت ، فمن أنت ، فقال : سلماً أصبت ، ورفيقاً كما أحببت ، فقلت : خيراً أجبت ، وسرنا فلما تخالينا ، وحين تجالينا ، أجلت القصة عن أبى الفتح الإسكندرى ، وسألنى عن أكرم من لقيته من الملوك ، فذكرت ملوك الشام ، ومن بها من الكرام ، وملوك العراق ومن بها من الأشراف ، وأمراء الأطراف ، وسقت الذكر ، إلى ملوك مصر ،فرويت ما رأيت وحدثته بعوارف ملوك اليمن ، ولطائف ملوك الطائف ، وختمت مدح الجملة ، بذكر سيف الدولة ، فأنشأ يقول :

يا ساريًا بنجومِ الليلِ يمدحُها ولو رأى الشمسَ لم يعرفْ لها خطرا
وواصفاً للسّواقى هَبْكَ لم تَزُر البحر المحيط ألم تعرف له خَبَرا !
من أبصر الدّر لم يعدلْ به حجَرًا ومن رأى « خلفاً » لم يذكر البَشَرا
زره تزرْ ملكا يعطى بأربعةٍ لم يحوها أحدٌ وانظرْ إليه ترى
أيامه غُرَراً ، ووجهه قَمَرًا وعزمه قَدَرا ، وسَيْبَه مطرا
ما زلت أمدح أقواماً أظنّهمُ صفوَ الزمانِ فكانوا عندهُ كدرا

قال عيسى بن هشام ، فقلتُ : من هذا الملك الرحيم الكريم ، فقال : كيف يكون ، ما لم تبلغه الظنون ، وكيف أقول ، ما لم تقبله العقول ، ومتى كان ملك يأنف الأكارم ، إن بعثت بالدراهم ، والذهب ، أيسر ما يهب ، والألف ، لا يعمه إلا الخلف ، وهذا جبل الكحل قد أضرّ به المِيل[1] ، فكيف لا يؤثر ذلك العطاء الجزيل ، وهل يجوز أن يكون ملك يرجع من البذل إلى سرفه ،

---

(٢) ما يكتحل به .

ومن الخلق إلى شرفه ، ومن الدين إلى كلفه ، ومن الملك إلى كنفه ، ومن الأصل إلى سلفه ، ومن النسل إلى خلفه .

فليتَ شعرى مَنْ هـذى مآثرهُ ماذا الذى ببلوغ النجمِ ينتظرُ

المقامة النيسابورية

حدّثنا عيسى بن هشام قال : كنتُ بنيسابور ، يوم جمعة ، فحضرت المفروضة، ولما قضيتها اجتاز بى رجلُ قد لبس دَنّية [1] ، وتحنّك سُنّية [2] ، فقلت لِمُصلٍّ بجنبى : من هذا ؟ قال : هذا سوس لا يقع إلا فى صوف الأيتام ، وجرادٌ لا يسقط إلا على الزرع الحرام ، ولصّ لا ينقبُ إلا خزانة الأوقاف ، وكردىّ لا يغير إلا على الضعاف ، وذئبٌ لا يفترس عبادَ الله إلا بين الركوع والسجود ، ومحارب لا ينهب مال الله إلا بين العهود والشهود ، وقد لبس دنيّته وخلع دينيَّته ، وسوّى طيلسانه ، وحرّف يده ولسانه ، وقصّر سِباله ، وأطال حباله ، وأبدى شقاشقه ، وغطّى مخارقه ، وبيَّض لحيته ، وسوّد صحيفته ، وأظهر ورعه ، وستر طمعه .

قلت : لعن الله هذا ، فمن أنت ، قال : أنا رجل أعْرَفُ بالإسكندرى ، فقلت : سقى الله أرضاً أنبتت هذا الفضل ، وأباً خلَّفَ هذا النسل ، فأين تريد ؟ قال : الـكعبة ، فقلت بخٍّ بخٍ بأَكْلِها ولمَّا تُطْبَخ [3] ، ونحن إذاً رفاق .

فقال : كيف ذلك وأنا مصعّد وأنت مصوّب ، قلت: فكيف تصعد إلى الـكعبة ؟ قال : أمّا إنى أريد كعبة المحتاج ، لا كعبة الحجَّاج ، ومَشْعَر الـكرم ،

---

(١) قلنسوة القاضى .

(٢) نسبة إلى أهل السنة .

(٣) يعنى زيارة الكعبة وثوابها .

لامَشْعَرُ الحرم ، و بيت السَّبْى ، لا الهَـدْى [١] وقِبلة الصِّلات [٢] ، لاقبلة الصَّلاة ، ومِنى الضيف ، لا منى الخيف [٣] ، قلت وأين هذه المكارم ، وأنشأ يقول :

بحيثُ الدينُ والمَلِكُ المؤيدْ وخدُّ المـكرماتِ به موردْ
بأرضٍ تنبتُ الآمالُ فيهـا لأن سَحابَها خَلَفُ بنُ أحمدْ

المقامة الخلفية

حدّثنا عيسى بن هشام قال : لما وُلِّيتُ أحكام البصرة ، وانحدرت إليهـا عن الحضرة ، صحبنى فى المركب شابٌّ كأنه العافية فى البدن ، فقال : إنى فى أعطاف الأرض وأطرافها ضائع لـكنى أَعَدّ مُعَدّ ألف ، وأقوم مقامَصفّ ، وهل لك أن تتخذنى صنيعة ، ولا تطلب منى ذريعة ، فقلت : وأىّ ذريعةٍ آكد من فضلك ، وأىّ وسـيلة أعظم من عقلك ، لا بل أخدمك خدمة الرقيق ، وأشاركك فى السّعة والضيق . وسرنا ، فلما وصلنا البصرة غاب عنى أياماً فضقت لغيبته ذَرْعاً ، ولم أملك صبراً ، فأخذت أفتش جيوب البلد حتىوجدته ، فقلت : ما الذى أنكرته ولِمَ هجرت ، فقال : إن الوحشة تقدح فى الصدر اقتداح النار فى الزند ، فإن أطفئت نارَتْ وتلاشت و إن عاشت طارت وطاشت ، والقطر إذا تتابع على الإناء امتلأ وفاض ، والعتب إذا ترك فرَّخ و باض ، والحُرُّ لا يعلقه شَرَكٌ كالعطاء ، ولا يطرده سوط كالجفاء ، وعلى كل حال ، ننظر من عال ، على الـكريم نظر إدلال ، وعلى اللئيم نظر إذلال ، فمن لقينا بأنف طويل ، لقيناه بخرطوم فيل ، ومن لحظنا بنظر شزر ، بعناه بثمن نزر ، وأنت لم تغرسنى ليقلعنى

---

(١) ما يساق من أنعام ليحى بها .
(٢) العطايا .
(٣) بلدة قرب مكة المكرمة

غلامك ، ولا اشتريتنى لتبيعنى خدّامُك ، والمرء من غلمانه ، كالـكتاب من عنوانه ، فإن كان جفاؤهم شيئاً أمرتُ به فما الذى أوجب، و إن لم تكن علمت به كان أعجب، ثم قال :

ظَفِرَتْ يدا خلف بن أحمدَ إنه   سهلُ الفِناء مؤدِّبُ الخُدَّامِ

أوَما رَأيت الجودَ يجتازُ الورى   ويحلُّ من يدهِ بدارِ مُقامِ

قال عيسى بن هشام : ثم أعرض وتبعته أستعطفه وما زلت ألاطفه حتى انصرف ، بعد أن حلف : لا أوردتُ من أساء عشرته ، فوهبتُ له حرمته .

٣ ـ الديوان

ا ـ من المديح

الملك السبّاق

قال يمدح أبا الحارث الفريغونى أمير جوزجان :

سلِ الملكَ الـكريم إلامَ تبنى   وأينَ وقـد تجاوزتَ السماءَ

أجِدَّكَ لا يراكَ اللهُ إلا   عـلاءً أو عطاءً أو وفاءَ

ولو ذوّبتنى ما كنتُ إلا   ولاءً أو دعاءً أو ثنـاءَ

منحتك من سواءِ الصدرِ ودًّا   يكاد لفرطهِ يروى الظّماءَ

أيعجزنى إذا احتكّوا هناءٌ   وللـكلبى إذا مرضوا شفاءَ !

جريتَ مع الملوك إلى مداها   ففتّهمُ سنـاءً وارتقـاءَ

فضلتهمُ ندًى وفضلت مالاً   ومن طلب الثناءَ رمى الثراءَ

أمن جمعَ الدراهمَ واقتناها ... كمن جمع النهى ليسوا سواءَ
يكاد التختُ يورق جانباهُ ... ويقطر عودهُ ليناً وماءَ
إذا خطرتْ له قدماكَ تسعى ... إلى أعوادهِ أو قِيلَ جاءَ

سيد الأمراء

وقال يمدح صاحب الجيش أبا على :

عليَّ أن لا أريح العيسَ والقتبا ... وألبس البيد والظلماءَ واليلبا
وأترك الخود معسولاً مقبَّلها ... وأهجر الكأس يغدو شَربُها طربا
وطفلة كقضيب البانِ منعطفاً ... إذا مشتْ وهلال الشهرِ منتقبا
تظلُّ تنثر من أجفانها حبَباً ... دونى وتنظم من أسنانها حبَبا
قالت وقد علقتْ ذيلى تودّعنى ... والوجدُ يخنقُها بالدمع منسكبا
لا درَّ درُّ المعالى لا يزال لها ... برقٌ يشوقك لا هوناً ولا كثبا
فقلت ردّى قناعَ الصبر إن لنا ... إليك أوبةَ مشتاقٍ ومنقلبا
أبى المقامَ بدار الذلّ لى كرمٌ ... وهمةٌ تصل التخويدَ والخبَبا
وعزمةٌ لا تزال الدهرَ ضاربةً ... دونَ الأمير وفوق المشترى طنبا
يا سيدَ الأمراء الُغر ، فما ملكٌ ... إلا تمنّاك مولًى واشتهاك أبا
إذا دعتك المعالى عُرفَ هامتها ... لم ترض كسرى ولا مَنْ قبله ذنبا
أين الذين أعدّوا المال من ملكٍ ... يرى الذخيرةَ ما أعطى وما وهبا
ما السيفُ محتطماً ، والسيلُ مرتكماً ... والبحرُ ملتطماً ، والليلُ مقتربا
أمضى شباً منكَ ، أدهى منك صاعقةً ... أجدى يمينا ، وأدنى منك مطّلبا

وكاد يحكيكَ صوبُ الغيثِ منسكباً لو كانَ طلقَ المحيّا يمطرُ الذهبا

والدهرُ لولم يَخُنْ، والشمسُ لو نطقتْ والليثُ لو لم يُصَد ، والبحرُ لو عذبا

يا من يراهُ ملوكُ الأرض فوقهمُ كما يرون على أبراجها الشهبا

لا تكذبنَّ فخيرُ القول أصدقُهُ ولا تهابنَّ فى أمثالها العربا

فما السموءلُ عهداً ، والخليل قرًى ولاابن سُعدى ندًى، والشنفرى غَلَبَا

من الأميرِ بمعشارٍ إذا اقتسموا مآثرَ المجدِ فيما أسلفوا نهبا

ولا ابن حجر، ولا الذبيانِ يعشرنى والمازنىُّ ، ولا القيسىُّ منتدبا

هذا لركبتهِ ، هذا لرهبتهِ ، هذا لرغبتهِ ، هذا إذا طربا

ابن السماء

وقال يمدح الأمير العنبرى :

حىّ الأميرَ العنبرىَّ وقلْ له يا كعبةً آما لنا حُجّاجُـهُ

أنت ابُن بيتٍ فى السماءِ مكانُه سقفاً وفوق المشترى معراجُهُ

اركبتنى فرسَ الـكرامة ملجماً وعليكَ بعد لجامه إسراجُهُ

ولئن فعلتَ لأشكرنّك فى الورى شكراً تموج عليكمُ أمواجُهُ

بمدائحٍ لا ينمحى ديباجها وبخاطرٍ لا ينتهى عَجّاجُهُ

أنا العبد

ومن قصيدة قالها فى مدح الأمير أبى على ابن ناصر الدولة :

وما حالُ صبٍّ بالعراق فؤادُه ... أسيرٌ وثاوٍ فى خراسانَ سائرُهْ
على أن فى قرب الأمير و بسطه ... لنا عوَضاً لا يخلف الظنَّ ماطره
ألم تر أن الملك قرَّ قراره ... إذا زُيّنت باسم الأميرِ منابرُه
سحابٌ ولكنّ الدنانيرَ صوبُهُ ... وليثٌ ولكنَّ الملوكَ عقائره
وأبلج كالصبحِ الأغرّ جبينه ... ضياءً ، وكالليلِ البهيم عساكره
تذلُّ له الأقدارُ وهْىَ جنودُه ... وتخدمه الأيامُ وهى عشائره
يموجُ به فى الحربِ صافٍ أديمُه ... حفوزٌ لهاماتِ الملوكِ حوافره
ألم تر غَرْشَسْتانَ كيف تغوّرتْ ... معاقلها لما انتحتها بصائره
حنانيك حسّادى كثيرٌ كما ترى ... ومن حسنتْ عيناهُ تكثرْ ضرائره
ومن حلَّ من علياكَ حيثُ تحلّنى ... تصدّى له قاصى المحلِّ وقاصِره
أنا العبدُ لا يأبى عليكَ ولاؤهُ ... خلوصاً ولا تخطو ذراكَ مفاخره

بحر جواهر

وقال من قصيدة يمدح الأمير خلف بن أحمد :

وفى خَلَفٍ إن ألحقتنا يدُ المنى ... لنا خَلَفٌ لا يُخلفُ الظنَّ ماطرُهْ
فلما وردنا موسمَ الملك أقبلتْ ... وفودُ الغنى واستقبلتنا بوادرُهْ
ولما انجلى بدر الدجى من جبينهِ ... أعرنا الثرى حرّ الوجوه تعافره

جلبنا إليهِ الفضلَ وهو أميرُهُ وبعنـــا عليه بزّه وهو تاجرُهْ
وَبُحتُ فقال الناسُ مَن ذا ؟ وقال من أجابهم : عبدُ الأميرِ وشاعره
ولاحت لنا منهُ عيوبٌ كثيرةٌ ولا عيبَ فيهِ غيرَ ما أنا ذاكره
ولادته فى عالمٍ دونَ قدرهِ وفى زمنٍ مثل اسمه لا يقادره
وما ملك إلا يؤدِّى خراجَه إليهِ على رغمٍ ونحن نصادره
أيا جابر العظم المهيض لقاؤه ولا يجبر العظم الذى هو كاسره
أتأمرُ لى بِبَدْرةٍ كلَّ نظرةٍ إلى الشغل باستيفاء ما أنت آمره
فإن يكُ بحرٌ أغرق الناسَ ماؤه فإنك بحرٌ أغرقتنى جواهرُهْ

يد الندى والنار

وله من قصيدة فى خلف بن أحمد :

وليلٍ كذكراهُ كمعناهُ كاسمهِ كدينِ ابنِ عبّادٍ كإدبارِ فائقِ
شققنا بأيدى العيسِ بردَ ظلامهِ وبتنا على وعدٍ من السيرِ صادقِ
تزجّ بنا الأسفارُ فى كل شاهقٍ وترمى بنا الآمال من كل حالقِ
كأنَّ مطايانا شفارٌ كأنّما تمدُّ إليهنَّ الفلا كفَّ سارقِ
كأنَّ نجومَ الليل نظّارةٌ لنا تعجّب من آمالنا والعوائقِ
كأن نسيمَ الصبح فرصةُ آيسٍ كأن سرابَ القيظِ خجلةُ وامقِ
كأن سَماءَ الدجن لولا انقشاعها يدَا خَلَفٍ عند الندا والصواعقِ

ابن خاقان

وقال يمدح يمين الدولة السلطان محمود بن سبكتكين :

تعالى اللهُ ما شاءَ   وزادَ اللهُ إيمانى
أأفريدونُ فى التاجِ   أم الإسكندرُ الثانى
أم الرجعةُ قدعادتْ   إلينا بسليمانِ
أطلتْ شمسُ محمودٍ   على أنجُمِ سامانِ
وأمسى آلُ بهرامٍ   عبيداً لابنِ خاقانِ
إذا ما ركبَ الفيلَ   لحربٍ أو لميدانِ
رأتْ عيناك سلطاناً   على منكبِ شيطانِ
فمن واسطةِ الهندِ   إلى ساحةِ جرجانِ
ومن قاصيةِ السندِ   إلى أقصى خراسانِ
على مقتبلِ العمرِ   وفى مفتتحِ الشانِ
فيوماً رُسُلُ الشاهِ   ويوماً رُسُلُ الخانِ
فما يعزبُ بالمَغْر   بِ عن طاعتك اثنانِ
أيا والىَ بغدادٍ   ويا صاحبَ همدانِ
تأمّلْ مائتى فيلٍ   على سبعةِ أركانِ
يُقلّبنَ أساطينَ   ويلعبنَ بثعبانِ
ويأجوجٌ ومأجوجٌ   من الجندِ تموجانِ

ب ــ من الرثاء

حزن وندم

وقال يرثى الأستاذ أبا بكر الخوارزمى :

حنانيكَ من نَفَس خافتِ ولبيّكَ من كَمَدٍ ثابتِ
أبا بكرٍ اسمعْ وقل كيفَ ذا ولستَ بمسمعــةِ الصائتِ
تحمّلتُ فيك من الحزنِ ما تحمّله أُبنُك من صامتِ
حلفتُ لقد متَّ عن معشرٍ غبيّينَ عن خطَرِ المائتِ
يقولونَ أنتَ به شامتٌ فقلتُ الثرى بفمِ الشامتِ
وعزّتْ علىَّ معاداتُهُ ولا متداركَ للفائتِ
وقالَ الأنامُ خــلا الجوُّ لى لعمرى ولـكن على عانتِ
أبيضُ ولـكن إلى عاقرٍ وأصفرُ لـكن على ساكتِ

ج ــ من الاعتذار

مخلص الود

وقال قصيدة طويلة فى الصاحب ابن عباد منها هذا الاستعتاب والاعتذار إليه :

أكافى الكفاةِ أُستبقِ منى ومن دمى حشاشةَ مجدٍ فى البلاد مُشرّدِ
أفى موجب الفضل الذى أنت أهلُهُ توعّدُ مثلى ، أم قضيةُ سؤددِ
أبعدَ مقاماتى لديكَ وهِجرتى إليك ، و إنفاقى طريفى ومتلدى
وجوّابة للأفق فيك طردتها غدت بين منثورٍ و بين مقصّدِ
وقفتُ بها أستطلع الرأى منشداً وقلتَ ــ وأعلى الله قولك ــ جوّدِ

فأينَ زمانى بالخوانِ حضرتهُ ... وأين إلى البابِ الرفيع تردّدى

ومالى (وأبوابُ الرجا فيك جمّةٌ) ... وقفتُ ببابٍ من رجائك موصدِ

ولا باعُ أمالى إليك بقاصرٍ ... ولا وجهُ أعمالى لديك بأسودِ

فماذا عسى الواشونَ خاضوا على دمى ... ومن أى وجهٍ ثار لى أىُّ مُؤيدِ

وأيّة نارٍ شبّهـا أىّ مُوقدٍ ... وأىّ عظيمٍ هاجَ من أيما ددِ

فإن كنت حقًّا موعدى بكريهةٍ ... فرأيك فى تعجيل يومىَ عن غدى

وإن تنوِ تحريكاً وتهذيب جانبٍ ... فقد صكَّ فى ذَرعى وقدفُتّ فى يدى

حنانيك من ظنٍّ لمولاك جائرٍ ... ولبيَّك من رأىٍ على العبدِ معتدِ

ولم تمضهـا فى مخلص الودِّ نيّةً ... يروح إليه الموت منها ويغتدى

ولا أنا إلا فى ولائك محتبٍ ... ولا أنا إلا بالهوى لك مرتدِ

وعذرىَ عند الله فيك ممهّدٌ ... وإن كان عند الناس غيرَ ممهَّدِ

وعقد ولائى فى ذراك مؤكّدٌ ... وإن لم يكن عقد المنى بمؤكد

ولستُ لأنى واجدٌ منك مهرباً ... أَحثُّ ركابى فَدْفَدًا بعد فدفدِ

ولكن سأبلى العذرَ فى كل حالةٍ ... بشكرك فى يوَمى مغيبى ومشهدى

فتبدى لك الأيامُ ما أنا عنده ... (ويأتيك بالأخبار من لم تزوّدِ)

د — من الفخر

صولة النحيف

وقال يفتخر موطئاً لمدح الشيخ أبى نصر زيد :

خُلِقتُ كما ترى صعب الثقافِ أَردُّ يدَ المعـاندِ فى الخلافِ
ولى جسدٌ كواحدةِ المثـانى لهُ كبدٌ كثالثةِ الأثافى
هلمَّ إلى نحيفِ الجسمِ منى لتنظرَ كيفَ آثارُ النحافِ
ألم ترَ أنَّ طائشةً لظـاها نتيجة هذه القصبِ العجافِ
صحبتُ الدهرَ قبلَ نباتِ فيهِ فلا تغرركْ خافيـة الغدافِ
نزلتُ من الزمانِ ومن بنيهِ على غصنين مِن شَجرِ الخلافِ
فلم أصحبْ عدوًّا فى صديقٍ ولم أشربْ ذعافاً فى سلافِ
ولم أرَ غيرَ معتنقَينِ وجداً وبينَهما خلافٌ فى غلافِ
على شفتَيهما ضحكُ التهـانى وفى كبدَيهما وخزُ الأشافى .

هـ — من الشعر المطعّم

قصيدة عربية فارسية

قرةَّ عيـنِي بذَكا محبّتى أى فلـكا
تريدُ أن تقتـلَنى نَه درست كردى درلـكا
وأُنهْ حمى ليلك أن ينصبَ دونى شركا
أما كفى صدغك لى إلى الردى معـتركا

وأننى لا أرقدُ الـــليل وأرعى الفلــكا

كأنما ألتحفُ الـــجمر وأعلو الحسكا

أذابنى فرط الضنا وهدّنى طول البكا

أبحتَ روحى ودمى بنى هداد روحكا

ورنه دهى بوسه زلب يهل يَبُوسَمْ لَبكا

فغاظه قولى لــهُ فقال بَس وى‌نه وكا

تريد تقبيــل فمى إليك لا أُم لكا

لولم يَنَمْ لم يحتـلم أحلستَ كلّى فاركا

ياطرّةً قد سلبتْ من الغراب الحلــكا

ومقلةً من نَفَثَتْ فيهِ بسحرٍ هلــكا

هواكَ إذ أجحفَ بى بأىّ علقٍ فتــكا

تفعلُ ألحاظُك بى ما تفعــلُ الخمرُ بكا

وكرتو دا دم نه دهى يا من إليه المشتــكى

يَكْرَزْم جَامَه دَرَمْ سسى قاضى وحكا

وقال إذ هـدّدتهُ سبحانَ من أرفعكا

قاض إذا ماجنّهُ الـــليلُ يصيـد السمكا

ينصب فى أسـفلهِ لـكل حوتٍ شبكا

أفٍّ لقاض يبتغى من المعاصى دركا

المراجع

الكامل لابن الأثير
دروس التاريخ الإسلامى للخياط
يتيمة الدهر للثعالبى
ديوان الهمذانى طبعة محمد شكرى المكى
المقامات والرسائل شرح الإمام محمد عبده ، والشيخ إبراهيم الأحدب
مع مراجعة طبعات لهما قديمة .

فهرست

الفصل الأول

عصر بديع الزمان

الفصل الثانى

بديع الزمان فى عصره

الفصل الثالث

جوانب بديع الزمان

تم طبع هذا الكتاب على مطابع دار المعارف
فى شهر ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٩٥٤